ماهر أبو السعود

أمير المدينة

رواية

مركز الحضارة العربية

أمير المدينة

رواية



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات او مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

علی عبد الحمید

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

ماهر أبو السعود

أمير المدينة

رواية



الكتاب : أمير المدينة
رواية

الكاتب : ماهر أبو السعود

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٢

رقم الإيداع : ٢٠٩٢٢/ ٢٠٠٢
الترقيم الدولى : I.S.B.N.977-291-423-9

الغلاف
لوحة الغلاف للفنانة : هند عدنان
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : سيد حرزاوى
تصحيح : زكريا منتصر

الإهداء

- إلى كل من حمل هموم الوطن على عاتقه إلى أرض الغربة .
- وإلى كل من شعر بالغربة فى أرض الوطن .

ماهر ابو السعود

(١)

هذا الرجل عقله لا يتوقف عن التفكير... شريف مهران كان يجلس وحيداً في قطار قديم محطم مهجور قريب من محطة السكة الحديد، لا شك في أنه يستمد بعضاً من قوته في وحدته، يضع قدمه على الكرسي المقابل ويرتدى نظاره شمسية سوداء تبرز ملامح وجهه المستدير الوسيم. ينظر من خلال النافذة فيرى بعض الأطفال المشردة تلعب كوتشينة على الأرض... ملابسه أنيقة تدل على ذوق رفيع لشاب في الثلاثين من عمره، شعره الأسود القصير المنكوش متناسق مع وجهه، وعلى الرغم من أنه لا يملك شيئاً على الإطلاق فشكله يدل على أنه من أبناء القصور.

لحظات قليلة ويدرك أن الأطفال يلعبون قماراً... كان من بينهم الطفل حسن في العاشرة من عمره، شريف يعرفه جيداً - نشال محترف.. ليس له أهل ترعاه ولا مأوى.. يدور شجار بينه وبين الأطفال وشريف يراقبهم من خلال النافذة. حسن يصرخ بصوت عالٍ يدوى في أذن شريف:

- محدش يقدر ياكل حقي... يا واكل قوتي يا ناوى على موتي.

ثم يخرج حسن مطوته من جيب سراويله الممزق مهدداً إياهم... الأطفال تفزع ثم يهرعون جميعاً من أمامه كالخرفان، يلقون بالنقود الفضية على الأرض، وحسن خلفهم يلعنهم بالأب والأم وأقذر الشتائم، ثم يجمع النقود من على الأرض وينصرف لحاله. ينهض شريف من على كرسيه ويبتعد عن النافذة دون أن يكتسى وجهه بأية مرارة فهذا نتاج عادى لمدينة قذرة ملوثة بأشكال الابتذال والفوضى والأطفال هم الضحايا.

الأفكار في عقله ملتهبة من فكرة لأخرى... تتغير من حال لأخرى أسرع من إطلاق الصاروخ في السماء... جنونه يعطيه الحياة. في تلك اللحظات فكر بالموت والحياة التي لا تساوي غيره. غموض الموت أرحم بكثير من أن يحيا بعالم قذر يتحكم به عصابة من الأنذال.. عالم ليس به عدل ولا رحمة. الحياة بالنسبه له لعبة.. لايرغب أن ينغمس بها ولكنه مجبر. فكر بالأمر ثم أخرج مسدسه من جيب الجاكيت.. منذ زمن طويل لم يمارس لعبته المفضلة مع الحياة، لعبة الروليت الروسي، يمارسه فقط قليل من الرجال يعيشون في هذا العالم... رجال لا يخافون الموت وشريف مهران أحدهم. بسرعة أعد نفسه لتنفيذ ما يدور بخاطره، أخرج جميع الرصاص من مسدسه عدا رصاصة واحدة وضعها بالمنتصف وأخذ يلف صينية المسدس دون أن ينظر إليه. الآن فقط لا يعرف أين الرصاصة رفع رأسه إلى أعلى وكأنه يتحدى مصيره. عاد إلى النافذة وأخذ ينظر حوله لم يجد سوى قطارات قديمة محطمة وأكوام زبالة في كل مكان، قضبان حديدية محطمة تستطيع أن تسير عليها دون رهبه من الموت... لف صينية المسدس مرة أخرى ليتأكد من عدم علمه بمكان الرصاصه، جهز روحه للذهاب إلى عالم آخر... نظراته تدل على عدم مبالاته بالحياة، وكيف له أن يبالي... فكر.. لماذا يخشى الإنسان الموت ؟؟ ربما لغموض العالم الآخر والجهل به، ربما لتشبثنا بالحياة التي لا نملك سواها... الخوف يجعل الإنسان بائسًا وضعيفًا ويتنازل عن حقوقه- الخوف لا يعرف مكانًا في قلبه لأنه يرحب بالموت في أية لحظة. عاش حياته هكذا ويفضل أن يموت، هكذا يعتقد أن هذا هو عالم الرجال - عالم الرجال الحقيقيين وليس من يرتدون طرح النساء.

إن شعوره بالحياة في هذه المدينة يجعله يحيا متألمًا... أن يحيا بين الضعفاء وأصحاب النفوذ والذين يطاردونه ليلاً ونهاراً يجعله يشعر

بالكارثه الكبرى لرجل يدرك الكثير من سر هذا البلد العظيم، لن يعطى الأنذال فرصة النيل منه - لن يموت بطلقات رصاصهم الغادرة ليشعروا بالراحة.

الآن فقط يستطيع أن يضغط على الزناد ويريحهم من طهارة ونبل أخلاقه ليشعروا بالحسرة على أنفسهم إذا فهموا فلسفة هذا الأمر.

وضع المسدس بفمه... واقتربت أصابع يده من الزناد!! من منا يملك الجرأة والشجاعة على خوض تلك المحاولة... على اتخاذ قرار مثل هذا، أن تضغط على الزناد فتذهب إلى عالم الأموات أو تصبح بطلاً... تماماً مثل الرؤساء الذين يتخذون قرار الحرب.. للأسف الغلابة هم من يقومون بالتنفيذ. ملامح الجنون بدت واضحة على وجهه... الآن لابد وأن يضغط على الزناد ولا يفكر بالأمر مرتين... إن التفكير بالأمر مرتين أحياناً يجعل الإنسان يتراجع عن قراره وأيضاً يجعل فشل المحاولة أمراً واقعاً.

ضغط على الزناد - اهتزت رأسه للخلف ولكن من أثر العيار الفشنك. لعن الحظ الذى يعانده حتى فى الموت.. وجد نفسه مجبراً أن يحيا مرة أخرى وعليه الآن أن يضع رصاصه بمسدسه لمواجهة الأوباش.

(٢)

استيقظت فجر هذا اليوم على صوت الأذان... جسدها مرهق... كانت لا تشعر بالرغبة فى النهوض من سريرها والذهاب للعمل. غفلت عيناها مرة أخرى وذهبت فى نوم عميق لبضع دقائق شعرت خلالها وكأنها رقدت لأعوام كثيرة، ولن يوقظها من نومها مرة أخرى سوى سماع صوته الخشن العميق ذى البحة «الجميلة». سمعته يصرخ بصوت عالٍ قائلاً: أنا شريف مهران - والدنيا متساويش غير شريف مهران.. صح النوم يا بلد. ومن بعد أطلق عدة طلقات نارية من مسدسه، ثم سمعت صدى الصوت يدوى بالمكان مردداً نفس الكلام..

فزعت.. وبسرعة نهضت من على سريرها. قميص نومها الأسود القصير يبرز جمال ثدييها وفخذيها وجسدها الأبيض الطرى المائل إلى الاحمرار سمينًا ومتناسقًا... انتابتها حالة من الذعر لا أول لها ولا آخر.. شدت ملايه بيضاء من على سريرها ولفتها حول جسدها وبسرعة هرعت إلى بلكونة المنزل وخرجت إليها في حذر شديد، أبصرت الشارع يمينًا وشمالاً لم تجد أحدًا.. شعرت وكأنها تحلم، لحظات قليلة ثم رأت بعض الرجال في طريقهم إلى المسجد. عادت إلى داخل المنزل وتأكدت من إغلاقها للبلكونة، كان لديها شعور أكيد بأنه ليس حلمًا. ذهبت وتأكدت من إيصاد باب المنزل. هذه أول مرة تستيقظ على صوت الرصاص.. نظرت إلى صورة زوجها المعلقة على الحائط.. صورة أبيض وأسود لرجل يرتدى زيًا عسكريًا ملفوفة بشريط أسود. رجل وسيم نظرته تدل على كبرياء وشموخ.

تحسرت على نفسها لبضع دقائق ثم ألقت بالملاية على كرسى مجاور لها وامتلكتها رغبة في أن يعود هذا الرجل ويسكن منزلها الأمان.. يعود ويطفيء لهيب الجسد.

سالمة امرأة في الخامسة والأربعين من عمرها، تتمتع بجمال غير عادى لامرأة في سنها. تخفي هذا الجمال تحت ملابس الحداد السوداء، على الرغم من أن زوجها توفي منذ زمن طويل ولكنها مازالت ترتدى هذه الملابس ليس فقط حزنًا عليه ولكن أيضًا لفقرها الشديد.

معاش زوجها لا يكفي متطلبات الحياة العادية، ولذلك فهي تعمل بائعة جرائد في محطة السكة الحديد.

تسكن وحدها بمنزل أثرى عتيق بحي القلعة - لا تدرك قيمته الأثرية ولكنها تعرف كيف تحارب الطامعين به - تحلم ليلاً ونهارًا بأن تجد رجلاً.. رجلاً يقف بجوارها ويساعدها في مواجهة هذه الحياة الصعبة.. رجلاً يسدد متطلبات الحياة والجسد معًا.

سخنت الماء على وابور الجاز، واستعدت لأخذ حمام ساخن. خلعت ملابسها وأخذت تصب الماء الساخن على جسدها، وبخار الماء أوحى إلى المكان برغبة غير عادية بداخلها.. أخذت تتحسس جسدها برفق شديد وانتابتها الشهوة وفجأة تذكرت طلقات الرصاص. ودت أن تعرف من هو صاحب هذه الطلقات ؟ من هو هذا الرجل الذى لا تساوى الحياة غيره ؟ أصابتها الحيرة ولكن فى نهاية الأمر سعدت بأن هذه الطلقات أيقظتها وجعلتها تخرج للعمل؛ لكسب رزق يومها.

(٢)

بالرغم من أنه أيقظها بطلقات رصاصه هذا الصباح، لكنها وصلت متأخرة لعملها.. وكأن التأخير فى هذا البلد أصبح علامة أكيدة لحضارتنا الحديثة، وهذا بالطبع لن يرضى الحاج مصطفى صاحب الكشك بمحطة السكة الحديد.. نالت من الرجل العجوز من التوبيخ والتأنيب والسب ما لا يرضى البشر العادى، وهذا أيضًا أصبح لغة العصر وخاصة لامرأة مسكينة مثل سالمة محبطة وفريسة لهؤلاء البشر. امرأة فقدت إحساسها منذ زمن طويل، وسلاطة اللسان مقابل لقمة العيش أصبحت أمراً واقعًا لها، ولكنها فجأة شعرت بإنسانيتها وكأن طلقات الرصاص هذا الصباح فكّت عقدة لسانها وحركت المشاعر بداخلها. وجدت نفسها ترد عليه وللمرة الأولى تقول:

- ما تتخلّقش قوى كده – ده أنا حايلله ببيع كلام الحكومة !!

اندهش من الرد، ولكنه أيضًا وجدها فرصة طيبه ليلامس جسدها الطرى، خرج من الكشك متظاهراً بعلامات الغضب على وجهه. قائلاً:

- كلام الحكومة اللى مش عاجبك ده هو يا أختى اللى بيأكلك لقمة العيش.

ـ لقمة العيش هي فين دى ؟

وهنا أتيحت له الفرصة الذهبية لملامسة جسدها متظاهراً بأنه يدفعها بعيداً وأنه غير سعيد بما قالت.

ـ روحي شوفي شغلك أنا مش ناقصك على الصبح.

دفعت يده بعيداً وأخذت الجرائد ووضعتها فوق رأسها وهي تهمس بصوت خافت:

ـ ضربه في قلبك تجيب خبرك.

– بتقولي إيه. محاولاً الذهاب إليها وملامستها مرة أخرى .

– مفيش حاجة. وهي تبتعد عنه.

– طب امشي مع السلامة.

رحلت بعيداً عنه قبل أن يلمسها مرة أخرى وأخذت تفكر في زوجها الراحل محمد علي – قالت لنفسها:

ـ الله يرحمه لو كان عايش ما كان اللي بيحصل حصل.

(٤)

أخذ يسير ليلاً في شارع قريب من ميدان رمسيس يلعن اليوم الذى ولد فيه بهذه المدينة. الزمن ليس زمنه، والرجال أمثاله يسكنون السجون أو مستشفي الأمراض العقلية أو يلبسون الطرح ويسكنون منازلهم، أو مطاريد مثله... أخذ يتساءل مع نفسه، لماذا فقد المواطن العادى ولاءه لهذا البلد وأصبح يعمل ضد وليس لمصلحة البلد؟؟ من هو المسئول الحقيقي عن هذه الكارثة ؟؟ هل مأساة هذا الشعب تراكمت منذ زمن الاحتلال أو السلطات السابقة؟؟ من هو المسئول عن فقدانه إنسانيته ؟؟

أبصرها تسير ببطء شديد على الرصيف الآخر. توقف وصوب نظراته إلى ملابسها شبه العارية.. تنظر حولها.. تنتظر سيارة فخمة

لتتوقف. يعرفها جيداً ولكنها لا تعرفه.. تعرف شكله.. رأته عدة مرات. إنها أحلام فتاة الليل.. في التاسعة عشرة من عمرها، تبيع جسدها لمن يشترى وتحبذ أصحاب العربات الفخمة، وترجحهم من كبار السن فهم من يملكون الأموال وتعتبرهم عملاً سهلاً. تسير بخفة ورشاقة وكأنها تملك الحياة ولكنها لا تملك الروح.

تلاقت العيون.. أخذ ينظر إليها بشغف شديد، وشعر بضعف غير عادى.. لحظات قليلة نسى الأوغاد - فقط أخذ يفكر: إنه منذ زمن طويل لم يرقد بفراش امرأة.. ود لو أخذها إلى القطار المهجور ومارس معها كل أشكال الحب. اكتملت الفكرة في رأسه ولم يتبق سوى التنفيذ. بسرعة عبر إلى الجانب الآخر، ولكن الحظ عانده.. توقفت سيارة مرسيدس فخمة وذهبت أحلام بسرعة وفتحت العربة وركبت بها.

حاول اللحاق بها ولكن دون جدوى. لعن العالم المادى الذى حرمه من متعة أحلام في هذا الوقت.

ضحك صاحب الكشك الذى كان يتابع الموقف وكأنه يشاهد فيلماً سينمائيًّا وقال في سخرية شديدة:

ـ اللى بيمشوا على رجليهم الأيام دى ما ينفعوش !! تعبانين يا قلبى !!!

وضحك ضحكة عالية. لم يعجب شريف بمقولة الرجل - ولكنه سأله إذا كان يستطيع أن يستخدم التليفون، سمح له الرجل وأخذ يحدثه عن النساء، وشريف يدير قرص التليفون ويحاول تجاهله، قال له: كل النساء عاهرات عدا أمى.

شريف : أيوه يا مراد، أنا شريف - ازيك.

أنا كويس الطيارة هتقوم إمتى؟؟

طيب خلاص.. خلاص هاشوفك قبل ما تسافر.

كان الرجل ينصت لحديث شريف بالتليفون وكأن هذا أمر عادى..

أبصره شريف بنظرة اشمئزاز وهو يضع السماعة وسأله عن علبة سجائر... أخرج الرجل علبة سجائر من على الرف وأعطاه إياها وبينما يخرج شريف النقود من محفظته سأله الرجل بفضول شديد:

ـ حضرتك ليك حد مسافر؟؟

ـ هنا نفد صبر شريف.. انتابه حالة غضب شديدة ولم يتمالك أعصابه لفضول هذا الرجل قال في غضب شديد مع مس من الجنون:

ـ خليك في حالك يا حقير، يا متخلف يا حثالة المجتمع يا ابن الكلب. ثم ألقى النقود في وجهه. استغرب الرجل وأعلن غضبه هو الآخر عن ما سمعه وبسرعة شديدة أراد أن يجذب عصا من داخل الكشك.. فأخرج شريف مسدسه بسرعة وصوبه نحوه.. ارتعد الرجل وتسمر مكانه ورفع يده إلى أعلى.. وأعرب عن أسفه الشديد وهو يتبول في ثيابه من هول المفاجأة. ظن أن شريف رجل بوليس.

وضع شريف مسدسه إلى مكانه الأول، وأخذ علبة سجائره ورحل وهو يقول بصوت عال:

كلاب.. كلاب.. هتعيشوا كلاب وتموتوا كلاب.

وصدى الصوت يدوى بالمكان.

(٥)

عاد إلى القطار المهجور ليبيت ليلته.. جلس على المقعد وأشعل سيجارة، وأخذ يفكر بأحوال العالم حوله.. بعد غد سوف يتقابل مع أستاذه ومثله الأعلى دكتور عزيز أستاذ السياسة والاقتصاد الجامعي المركون على المعاش بمحض إرادته، رجل عظيم مثله يقضي وقته على مقهى شعبى يلعب «شطرنج» ويحلم بتطهير هذا العالم القذر. يحمل نفس أفكاره. سوف يقابله وما أجمل لقاءهم. سوف يتحدثون فى موضوعات كثيرة. سوف يرشده على الطريق الصحيح ويعلم أنه

الإنسان الوحيد الذى سوف يزور قبره إذا خطفه الموت، وسوف يضع الزهور البيضاء على قبره.. زهور الروزيس التى سوف تحلق حول روحه فى عالمه الآخر - هكذا وعده.

نال الأوغاد من تفكيره بعض الدقائق. الشيخ زيدان يقلقه كثيراً ويخشى هيمنته، والدهشان تاجر المخدرات ورجاله الذين يريدونه حيًّا أو ميتًا، وفوزى البنا رجل الأمن الذى يتابع خطواته فى كل مكان، لا يهتم بالأخير كثيراً بقدر ما يهتم بالأول. فالأول كارثة كبرى.

سمع صوت طفل فى العاشرة من عمره كان يجلس على الكرسى المجاور له قائلاً: ازيك يا شريف.

الصوت ليس غريبًا عليه - التفت بجواره ليرى المتحدث.. أخذ يدقق النظر بشدة فى الظلام حتى استطاع أن يتعرف عليه.. إنه صديقه.. صديق الطفولة إسماعيل.. الذى كان يطلق عليه «سمعة». لم يصدق نفسه. قال بسرعة ولهفة شديدة: ازيك يا سمعة.. الله إنت بتعمل إيه هنا؟؟

ثم انتفض من مقعده وهب واقفًا.. وقع قلبه فى قدمه من شدة الخوف وهول المفاجأة.. وشعر بوقوف شعر رأسه - حدثت قشعريرة قوية بجسده جعلته يرتجف عندما تذكر أن «سمعة» مات منذ عشرين عامًا فى حادث قطار.

سمعة: انت محظوظ يا شريف، إحنا بنظهر فى الليل بس. فى الظلمة والناس نايمة. لكن انت...

سمع أصواتًا غريبة لأشخاص قادمة من الخارج - ومعها أصوات الغربان: كواك.. كواك. التفت إلى سمعة مرة أخرى فلم يجده، اختفى.. اختفى تمامًا.. وكأنه لم يكن موجوداً من أول الأمر. طرد الخوف من قلبه.

لقد كانت لحظات الخوف فقط من هول المفاجأة.. هو يؤمن بالأرواح والشياطين. ولكن ليست كل الأرواح بالنسبة له شريرة.. هناك أرواح طيبة ـ أخذ يفكر في جملته: أنت محظوظ يا شريف.

لم يع وجوده بهذه اللحظة.. اقتربت الأصوات من مكانه.. نهض مرة أخرى وأبصر من النافذة. فوجد أربعة أشخاص يبدون كالأشباح.. واحد منهم مرغم بين الاثنين ـ والأخير يرشدهم إلى طريق القطار.

أخذ يقول لنفسه: يبدو أن هذه الليلة ليلة الأشباح والشياطين.

وعندما صعد إلى القطار بالعربة المجاورة له حاول أن يشغل فكره بشيء آخر. ولم تمر لحظات قليلة حتى سمع صوت امرأة تصرخ وتستغيث.. على الفور تأكد من وجود مسدسه بلمسة خفيفة على الجاكيت.. ثم نهض من مكانه بسرعة وأخذ يسير نحو نافذة باب العربة. وجد امرأة وثلاثة رجال يرتدون زيًا عسكريًا.. بدءوا في تقطيع ملابسها وهي تقاوم بكل ما تملك من قوة. انتابته حالة من الذهول ولم يستطع أن يتمالك نفسه من هول ما رأى ـ تأكد في تلك اللحظة أن هذه الأرواح آدمية شريرة.. حية.. تعبث وتغتصب حقًا ليس من حقهم. فقدت المرأة الضعيفة المقاومة وسقطت على الأرض. تمالك نفسه ولم يفكر بالأمر كثيراً . فقط دفع الباب بكل قوة بعد أن تأكد من أنها حالة اغتصاب ولابد لضميره اليقظ أن يتدخل.. تسمر الجميع بمكانهم.. وكأن عزرائيل دخل عليهم يدعوهم لحفلة خاصة. هؤلاء الأوغاد الثلاثة يقومون بارتكاب أفظع جريمة دون أن يعلموا أنه مازال هناك أصحاب الضمائر اليقظة.. قلوب لا تعرف الرحمة، فقط غريزة حب الامتلاك تحركهم وكأنهم قطع شطرنج، الآن فقط تنبهوا لوجود رجل يعلم ما يدور بخاطرهم، فزعوا من وجوده.. دعوه ليمارس معهم جريمتهم الكبرى ثمنًا لسكوته ولكنهم لا يعلمون من هو.. لم يدركوا أنه أرقى من أن يغتصب حقًا ليس حقه.. هددوه أن يترك المكان

وأشهروا عليه السلاح ولكن مسدسه كان أسرع منهم فسلاحهم الأبيض لم يبد جدوى أمام مسدسه وجنونه.. عندما قام بإطلاق النار هرع الجميع بسرعة وتبقى له امرأة مغمى عليها من أثر طلقات النار كانت سالمة - بائعة الجرائد - راقدة على الأرض ممزقة الملابس فاقدة الوعي. تابعهم من خلف نافذة القطار وهم يهرعون وليتأكد أيضًا من عدم رجوعهم مرة أخرى وليثبت قدرته على التحكم بالموقف أطلق الرصاص بالهواء وهو يصرخ بصوت عال دوى صداه بالمكان :

أنا شريف مهران يا كلاب .

جلس على المقعد ببرود شديد يبصرها وهي راقدة على الأرض.. وأخذ يفكر بالأمر: كيف له أن يفيق هذه المرأة الفاقدة الوعي المشلولة الحركة الراقدة على الأرض ممزقة الملابس.

نظر إليها وتحركت الرغبة بداخله رأى ثدييها وفخذيها عراة. أحلام ذهبت مع الرجل العجوز الثرى والآن أمامه امرأة تستطيع أن تعوض حرمانه - ولكنه على الفور تذكر أنه رجل، وهذا ليس عالمه.. لا يريد أن يكون مثل هؤلاء الأوغاد الثلاثة الذين رحلوا دون عقاب حقيقي.

القمر كان غائبًا تلك الليلة ولكن ملامح وجهه الوسيم بدت كالبدر في ليلة ساطعة، فكر بلعبة الموت ولكن بطريقة أخرى.. طريقة تفيق هذه المرأة الفاقدة الوعي؛ أخرج جميع رصاصه من مسدسه ووضع رصاصة واحدة في المنتصف، أخذ ينظر إليها وهو يلف صينية المسدس، وضغط الزناد.. دوى صوت الرصاص في السماء.. أيقظ الصوت المرأة فاقدة الوعي. أصيب بإحباط شديد: كيف تخرج الرصاصة لتفيق سالمة فاقدة الوعي ولماذا لم تخرج لتأخذ حياة الوعي ؟ أدرك أنه ليس وحيداً.. نهض من على كرسيه وخلع الچاكيت.. وهي تنهض من على الأرض محاولة إلمام ملابسها الممزقة لتدارى جسمها العارى.. أصاب لسانها الشلل للحظات، فرح النجاة من الاغتصاب والخوف من لقاء

المجهول جعلها تشعر بالقلق.. وكأنها كتب عليها أن تعيش حياتها هكذا - ألقي بالجاكيت في وجهها وفي غضب شديد قال لها : يعني مفيش غير الرصاص هو اللي يفوقك.

كانت مازالت مذهولة ولكنها شعرت ببعض الاطمئنان نحوه ووضعت الجاكيت عليها وأخذت تتساءل: أنت مين ؟

أناشريف مهران... يالأ بينا هوصلك بيتك.

لم تصدق نفسها وأخذت تسير خلفه وكأنها خادم مطيع يبحث عن سيد.. وجدت نفسها تلفظ بعض الكلمات بطريقة متقاطعة: إن شاء الله يخليك يا رب... ويسترها معاك دنيا وآخرة....

قال مقاطعاً بصرامة شديدة :اسكتي.. إنتي كلامك كثير.

لم تفهم الأمر... ولكنها فقط شعرت بفرحة النجاة ولم تبال بعد.

(٦)

في طريقهما لمنزل سالمة لم ينبس أحدهما بكلمة.. فقط كانا يستمعان إلى أم كلثوم من خلال راديو التاكسي، كانت تشدو بأغنية "جمالك ربنا يزيده.... ده مُلك منظمه سيده" تبادلا نظرات الفضول، ظنت سالمة أنه رجل شرطة... من يحمل مسدساً ويتصرف بهذا الأسلوب في هذا البلد يعني لسالمة أنه رجل شرطة. عندما وصلا إلى منزلها... أخذ شريف يتأمل المنزل الأثرى الجميل الذى خفيت معالم جماله تحت الزبالة المتراكمة أمامه والعنكبوت المعشش عليه والمجارى الطافحة على الأرض.. استغرب الأمر وسألها :

-هو ده بيتك ؟؟

- أيوه يا سعادة الباشا... اتفضل... اتفضل اشرب حاجة.

فتحت الباب - ودخل الاثنان.. سالمة أمامه ترحب بقدومه إلى منزلها :

- بيتك ومطرحك يا سعادة الباشا... معلش مش قد المقام.
- بيت مقرف زى صاحبته. ثم أخذ يسد أنفه من الرائحة الكريهة على الرغم من أنه لا توجد رائحة تستحق أن يسد أنفه، استغربت الأمر وبدت غير مصدقة ما سمعت، ثم ادعت الطرش للتأكد مما قال ولتعطى لنفسها فرصة الرد متسائلة: بتقول إيه يا سعادة الباشا ؟!!
شخط فيها بصوت عال قائلاً : فين القهوة يا ولية ؟؟
انتفضت من أمامه وعلمت أنها فى مأزق كبير: حاضر - حاضر. خلعت الجاكيت ووضعته على الكنبه المجاوره له.. وفرت من أمامه إلى المطبخ، لمح جسدها شبه العارى للحظة ولكنه أدار وجهه. وأخذ يتجول بالمنزل.. جدران المنزل تعود إلى عصر قديم وهندسته تبرز معالم تاريخية تعطى الباحثين فرصة الدراسة والعمل، والجهل بهذه التحفة الأثرية جعله أشد غيظًا.. أخذ يتجول بالمنزل وكأنه يبحث عن كنز مفقود.. وكأنه الوحيد الذى يعلم سره.
خلعت جميع ملابسها وألقت بها فى صفيحة الزبالة وارتدت ملابس أخرى برز من خلالها جمالها. بعد أن مشطت شعرها بدت كملكة جميلة فى ثوب متواضع. أخيراً وجدت رجلاً.. رجلاً تريده بمحض إرادتها وليس بالعنف والإجبار. شعرت للحظات أن الحياة عادت إليها على الرغم من أن هذا الرجل عصبى المزاج، ولكنه يبدو لها طيب القلب ويكفى أنه أنقذها من الأوغاد.
عادت إليه وهى تحمل صينية القهوة، وضعتها أمامه وهو يجلس على كرسيه ومسدسه فى يده سارحًا فى عالمه الخاص، كان يلف المسدس حول إصبع يده.. جلست على الكرسى المقابل له، لمحها بنصف عين وأخذ يشرب قهوته.. بدت له أكثر جمالاً.. كان يقلقها كثيرًا وجود المسدس، حاولت أن تستفسر الأمر :
- أنت على طول كده شايل مسدس معك يا سعادة الباشا.

- أنا مش بوليس.
- إيه ؟؟ أنت مش بوليس - طب شايل مسدس معك ليه ؟؟
- مش ده هو اللى أنقذك ؟؟
- أنا مش فاهمه حاجة ؟
خطرت بباله فكرة أن يلعب معها لعبة الموت... هو دائماً يلعب لعبة الموت مع نفسه لماذا لا يستغل هذه الفرصة ويلعب معها لعبة الموت؟ بدأت علامات الغضب والجنون ترتسم على ملامح وجهه وبداخله يدرك تماماً أنه لن يصيبها بأذى، فقط أراد أن يلعب معها يكتشف قدرتها: ولا عمرك فهمتى حاجة... إشمعنى دلوقتى عايزه تفهمى ؟
- هو أنا أخلص منهم تطلعلى إنت وكمان أجيبك بيتى!!
- اخرسى يا وليه انتى. ينهض من على كرسيه ويصوب المسدس نحو رأسها.. ارتعدت وتسمرت فى مكانها: إنتى حياتك هتنتهى بعد خمس دقائق. أسنانها تخبطت ببعضها البعض وأخذت تنتفض من هول المفاجأة.
- ليه - أنا عملت إيه ؟؟
- عملتى حاجات كثيرة... اللى زيك هو اللى ودّى البلد دى فى داهية... واللى خلّى حالى ده كده دلوقتى.
أخذ يلف حولها وهى ملتزقه بالكرسى والمسدس مصوب نحو رأسها. بدأ هذيانه يظهر بكلمات الغضب الصادرة من فمه بلهجة شديدة المرارة والحدة.
- عايشين حياتكم سلبيين.
- إنت عايز إيه بالظبط ؟؟
- لو صرختى ولاعملتى حركة كده ولا كده - رصاصة واحدة فى نفوخك أخلص منك ومن قرفك.
- حاضر يا أخويا - مش هصرخ بس قول عايز إيه ؟

- تعرفى إيه عن ثورة عرابى ؟؟؟

- قهوة عرابى اللى فى شارع الجيش.

- ثورة عرابى يا ولية يا جاهلة .

- معرفش حاجة والله العظيم - أنا فى حالى من ساعة ما مات جوزى عايشة فى حالى كافية خيرى شرى.

- والله العظيم الموت فيكى حلال.

- بلاش الموت أنا هعمل كل اللى تطلبه بس إلا الموت والتعذيب... أنا تحت أمرك خذ جسمى لو عايز - بس بلاش الموت.

- وإيه اللى حلو فى حياتك علشان تخافى من الموت بالشكل ده ؟

- عندك حق.. مفيش حاجة تستاهل بس أنا عايزه أموت موتة ربنا.

- ما دى موتة ربنا... إنتى مش بتنتحرى يا سالمة أنا بقدملك خدمة العمر.

- وكمان عارف اسمى. فى صوت خافت.. إسمع يا خويا بلاش تروح فى داهية علشان خاطر واحدة زيى متساويش.. إنت مش خايف يعدموك؟!

- أنا خايف أعيش - أعيش عيشة الكلاب.. إنتى السبب.

- أنا؟ هو أنا أعرفك يا جدع انت ولا شفتك قبل كده؟!

- جيلك... والجيل اللى قبلك واللى قبله هو اللى خلّى البلد دى فى الحالة دى... هو اللى خلق لنا العيشة الزفت دى.

سالمة محدثة نفسها فى صوت خافت: لا ده مش مجرم وبس - ده مخه ضارب. لم ينصت إلى ما قالت. قال مستمراً فى حديثه بلهجة مرة... وقلب محترق:

قعدتوا تتهونوا فى حق ورا التانى خايفين على عيالكم وخايفين على لقمة العيش وهمّا يسحبوا منكم اللقمة ويهينوا فى عيالكم وأنتم نايمين فى العسل... بكره تفرج، خايفين من الموت - بتموتوا فى اليوم

ألف مرة... وتتهانوا مليون - ولسه خايفين على إيه ؟؟ أنا مش فاهم.

- طب وأنا في إيدى إيه أعمله.. قولي وأنا تحت أمرك.

- عايزك تدافعي عن نفسك (يصوب مسدسه نحو رأسها وهو يقترب منها حتى يلمس المسدس رأسها) عن حقك.. متخافيش من الموت إحنا بنموت مرة واحدة. ارتعدت في مكانها وعلمت أنها وقعت فريسة ومصيرها أصبح بيده.

- عايزك بدل ما تديني جسمك حاولي تاخدى مني المسدس.. بدل ما تخافي اصرخي - اصرخي بأعلى صوت اطلبي النجدة حاولي تجرى بره بيتك وانتي مصابة وتصرخي - علشان الناس تسمع صوتك - يمكن النايم يصحى ويجي يساعدك.. يمكن الكل يقف معاكي وينقذك.

- يعني لو صرخت مش هتضرب نار.

هنا أدرك أن محاولته باءت بالفشل.. شعر وكأنه خبط رأسه بحائط صلب ولم يؤذ سوى نفسه ولا أحد يشعر برأسه المتألمة... هي في عالم آخر بعيد كل البعد عن عالمه - صنم لا يصد ولا يرد، لا ينفعل للأحداث من حوله. قرر أن يعاقبها وعقابها هنا أن يتركها وحيدة فالوحدة عقاب قاس للجاهل.

(٧)

استيقظ النذل هذا الصباح على صوت جرس التليفون... ابن العاهرة كان يحلم حلماً جميلاً - هكذا ظن، كان يحلم بتعذيب مواطن صالح في أحد أقسام البوليس وجرس التليفون قطع لذة حلمه السادى - أعرب عن غضبه على ذلك بأن يعاقب الطالب بترك ماكينة تسجيل التليفون تقوم بالمهمة، حتى الأنذال نالوا من التكنولوچيا الحديثة مالا يستحقون وخيراً أنهم مازالوا لا يعلمون بمأساة هذا التقدم.. صوت

الندل خرج من الماكينة معلنًا أنه غير متواجد بالمنزل.. نهض من على سريره بملابسه الداخلية ثم ارتدى سراويله أخرج سيجارة من علبة سجائره الأجنبية وأشعلها - استمع لصوت الآخر القادم من الماكينة:

- أيوه يا كمال أنا فوزى البنا... أول ما تسمع الرسالة دى تعاللى على المكتب علطول.

سكت الصوت. خرج إلى بلكونة منزله ونصف جسده الأعلى عار. أخذ يبصر الشارع أسفله بقرف شديد... حى مدينة ناصر أصبح مزدحمًا، يرى الناس أسفله كالنمل - وإن كان النمل أكثر نظامًا منهم - سائرين بلا هدف، وعدم المبالاة واضح على وجوههم، يبصرهم بكبرياء وكأنه يملك الكون حوله.. أخيرًا لم يجد سوى أن يلقى ببقية سيجارته عليهم، فعل ذلك بأطراف أصابعه وبكبرياء شديدة، نسى الندل أن أمه كانت تعمل غسالة فى بيوت الأغنياء ذات يوم وكانت لا تمانع من حين لآخر بإعطاء جسدها لهم من أجل بعض النقود التى تساعد على لقمة العيش.. بالطبع هو لا يعلم ذلك فعلمه أنها كانت تعمل غسالة كان كفيلاً له بالشعور بالعار، ووالده بائع الروبابيكيا الذى ضحى حياته كلها من أجل أن يصبح ابنه ضابط بوليس. يصاب بأزمة نفسية عندما يتذكر ذلك.. قوته وجبروته تأتى من محاولة النسيان. يتذكر فقط عندما تخرج فى الكلية، ووجد وظيفة.. أرسلهم إلى الأرياف من حيث جاءوا وحتى لا تكون مأساة الذكرى أمامه يوميًا. أخذ يرسل إليهم كل شهر بعض النقود مع أحدى الجنود التابعين له - مدعيًا له أنهم بعض الفقراء الذين يعطف عليهم.

فى أثناء مهمته كضابط شرطة وجد الطرق غير المشروعة لتحسين وضعه الاجتماعى وما أسهل هذه الطرق فى تلك المدينة القذرة، ودولة يخشى المواطن العادى فيها من شرطى بسيط فما بالك بالضابط الذى نال إعجاب أسياده وأصبح رائدًا.

ليلة الأمس قضى ساعات طويلة في قراءة ملف شريف مهران أكثر من مرة، استوعب الكبيرة والصغيرة بالملف.. فعل ذلك فقط خوفًا من رئيسه بالعمل فوزى البنا الذى كلفه بدراسة الملف. استغرب أمر الإدارة التي تهتم بهذا الملعون اهتمامًا كبيرًا... تهتم بتفاصيل حياته الشخصية أدق التفاصيل.. شك في نفسه للحظات قد يكونون علموا بأمره هو الآخر وبتاريخه ولكنه الآن كف عن الأساليب غير المشروعة منذ فترة طويلة.. الآن يملك سيارة فاخرة وشقة فخمة مجهزة بأحدث الأجهزة ولم ينس السلطة التابع لها، هو أحد رجالهم المخلصين.

أخذ يراجع الملف بسرعة شديدة وهو يقلب صفحاته.. حياة غريبة لرجل غريب الأطوار. شريف مهران من مواليد ٦٧ بباب النصر - من أسرة فقيرة.. يقال عن طفولته إنه كان على درجة غير عادية من الذكاء.. وشقي شقاوة سببت متاعب كبيرة لأسرته الفقيرة.. أبوه كان عاملاً فقيراً يعمل فى أحد المصانع، ويعانى من عدم قدرته على إعالة أسرته. وذات يوم فقد وظيفته، وعلى أثر ذلك فقد عقله.. عاد لمنزله لم يجد سوى الزوجة تطلب بعض الأموال لإطعام الأطفال، ودقائق معدودة وحضر الجيران يشتكون من شريف الذى تسبب في إشعال حريقة في منزلهم. لم يجد الأب سوى أن يدفن ابنه حيًّا في مقبرة قريبة من المنزل.. فقد عقله.. ووضع غضبه وغضب سنين عمره في ابنه الذى كان يجد صعوبة بالغة في التحكم بأمره - أغلق المقبرة.. ولكن الأم لحقت شريف في اللحظات الأخيرة قبل أن يلفظ أنفاسه.. خرج شريف من المقبرة وقلبه ميت؛ أصبح أكثر جرأة.

في سن السابعة عشرة من عمره سافر إلى فرنسا وليس هناك معلومات واضحة عن مصدر أموال السفر. درس القانون في جامعة السربون، وانضم إلى حزب شيوعى عربى هناك. كان يعمل ويدرس في نفس الوقت والحزب كان يساعده وفجأة توقف الحزب عن مساعدته

والظروف المادية أصبحت حائلاً بينه وبين آماله الكبيرة.. ترك الحزب وعاد إلى مصر. قام بأداء الخدمة العسكرية وقبل نهاية الخدمة بشهر ضرب قائد الكتيبة بكرسي وكسر أنفه لأنه سبه بأمه التي يحبها كثيراً ولكنه فلت من العقاب وليس هناك معلومات واضحة عن هذا الحدث أيضًا لأن قائد الكتيبة تنازل عن حقه.

انضم لجماعة إسلامية متطرفة جماعة الشيخ زيدان. تدرب على أيديهم أحسن تدريب وأصبح محترف سلاح.. ترك الجماعة.. حاولوا قتله ولكنه قتل اثنين من رجال الجماعة دفاعًا عن النفس.. وليس هناك أية دلائل ضده - الشيخ زيدان أحلّ دمه.

عمل مع تاجر مخدرات - الدهشان- لمدة شهرين. كان يقوم بالترجمة بينه وبين عملائه بالخارج لأنه يجيد التحدث بلغات متعددة بطلاقة شديدة. احتال على الدهشان فى مليون دولار وهرب.

شريف مهران مشهور بجرأته الشديدة ويحمل كفنه على يده. ليس له كبير وليس له محل إقامة ثابت.

أغلق كمال الملف، ثم قال محدثًا نفسه: وطبعًا عايزين أنا أقبض عليه.

ارتدى ملابسه وجهز نفسه للذهاب لمقابلة رئيسه بالعمل فوزى الينا.

(٨)

هذا الرجل يعرف كيف يحافظ على منصبه كمدير إدارة المباحث. قد يتخيل البعض أنه ضعيف وجبان وليس صاحب قرار - ولكن فى حقيقة الأمر ذكاؤه الشديد وحرصه على نفسه هو مايجعله يبقى فى منصبه. بقاؤه فى منصبه يثبت لهم أنه الأقوى والمدرك لخفايا الأمور فى بلد كثرت بها الطوائف والتطرف، ومنصبه يجعله يشعر بالقوة، وإذا فقد هذا المنصب لن يفلت من عقاب أعدائه وحتى الذين ظن أنهم

أحبابه. كان يجلس على كرسي هزاز بمكتبه بانتظار كمال. يلف ويدور بالكرسي ليرى الحجرة حوله، وكأنه لايريد أن يقع فريسة لأعدائه أيضًا - الحرص موهبه - وتمسكه بهذا الكرسي يجعله يقبل أى شيء ليبقى مالكًا لهذه السلطة. مهنته أن تظهر الأشياء الخافية أمامه. وبرزانة شديدة وذكاء يتعامل مع الأمور محاولاً أن يكون عادلاً بقدر الإمكان... فى بلد تختلف قواعد العدل من شخص لآخر حسب أغراضه الشخصية. يجهز ابنه بكل مايملك لأن يتولى منصبه بعده وبذلك يضمن لنفسه الحماية المطلوبة - كان يفكر فى أمر شريف مهران ويعتبر كمال أفضل ضابط للقيام بهذه المهمة؛ ضابط مطيع للأوامر ولا يحبذ السياسة؛ وهذا يجعله أفضل رجل لهذه المهمة الصعبة.

دخل عليه وقدم التحية، وبعد دقائق قليلة حضر جندى يحمل صينية القهوة. قدمها وانصرف. أخذ كمال يشرب قهوته.

فوزى : قريت الملف؟

كمال: أكتر من مرة.

فوزى : عظيم.. وإيه رأيك؟

كمال: هى دى عايزة رأى!! لازم نقبض عليه.

فوزى : لا.. لا أنا لو عايز اقبض على شريف هاجيبه دلوقتى حالاً.

كمال: وحضرتك مستنى إيه؟؟

فوزى : مفيش أدلة كافية.. شريف انضم لشيوعيين وإرهابيين وتجار مخدرات وشايل كفنه على كتفه - يظهر ويختفي وشايل مسدس غير مرخص.

ببساطة شديدة، شريف عند عقدة نفسية لما أبوه حطه فى التربة.

العقدة دى كبرت وأصبح ناقم على الحياة.

كمال: بس ده خطر لازم نقبض عليه.

فوزى: مش دلوقتى - إحنا ممكن واحنا بنتكلم دلوقتى كده يكون مقتول أو انتحر.

كمال: ومهمتى إيه؟؟

فوزى: شريف بدأ يهدد الأمن العام - فيه ناس شافوه امبارح بيهدد بياعة جرايد - المهمة بتاعتك تراقبه وتحميه.

كمال: نعم!! مش فاهم. فى استغراب شديد.

فوزى: شوف يا كمال: شريف فيه تار بينه وبين الشيخ زيدان وتار بينه وبين الدهشان علشان المليون دولار واللى هيوصل الأول للتانى هيخلص عليه.

إحنا كده - عارفين إن شريف هيموت سواء اتقتل أو انتحر.. لكن لو الشيخ زيدان مات؟؟

كمال: يبقى البلد خلصت من الإرهاب.

فوزى: برافو -ولو الدهشان اتقتل؟

كمال: يبقى ارتحنا من قرف المخدرات.. ولو بياعة الجرايد.

فوزى، مقاطعاً فى حزم شديد: لا.. إحنا يهمنا الناس اللى زى دول ولو ده حصل لازم مسدسك يكون أسرع منه.

كمال: آه.... فهمت.

فوزى، فى سخرية شديدة: بيض بيخبط فى بعضه اللى بيكسر الأول بيلغوص التانى ومسكين اللى يفهم.

كمال: مش فاهم.

فوزى: مش مهم تفهم دى - يلاّ يابطل بقى ورينى همتك.. عايزك تعرف كمان شريف ودّى الفلوس فين؟ ولمين؟؟

كمال: ودى هاعرفها إزاى من غير ماأحقق معاه؟؟

فوزى: ده شغلك.. شريف انضم لشيوعيين وإرهابيين، يمكن يكون فيه جماعات جديدة علينا واحنا مش عارفين.

(٩)

هذا اليوم محطة السكة الحديد كانت مزدحمة كالعادة. أخذ شريف يسير بين الناس بخطوات بطيئة وكأنه أمير في مدينة لا تعلم سره. نوى أن يقضي يومًا مليئًا بالأحداث الساخنة - يبصر الأمور حوله بنظارة شمسية تجعله أكثر أناقة، لم يجد سوى الابتسامة الساخرة على هؤلاء الناس الذين يعتبرهم بلهاء - البعض يهرع محاولاً اللحاق بالقطار وآخرون ينتظرون، وأصوات عالية. والبعض يتسكع السير بلا هدف.. سالمة كانت تحمل بعض الجرائد فوق رأسها وسط الزحام. أبصرها ولكنه ترك فكرة ملاحقتها.. كان يريد أن يعطي لهذه الأحداث فرصة الحدوث. الاهتمام بأدق التفاصيل حوله متعة جميلة.. لاحظ شجاراً بين شخصين على مسألة مادية تافهة لا تستحق الشجار وصرخ أحدهما بالآخر قائلاً: إنت عارف أنا مين؟؟ كان هذا كفيلاً بأن يجعل شريف ضاحكًا، ويبرز ملامح وجهه الجميل. فكر في أمر الجملة.. حتى الحفاة يتصرفون وكأنهم أشخاص مهمون وهذا البلاء يأتي من الكبار الحاكمين بالسلطة، والحفاة أصبحوا يقلدونهم كالببغاء دون الوعي بمصير الكلمة.

على الجانب الآخر، أبصر شرطيًّا عجوزًا يبدو وكأنه مصاب بالربو، وحالته الصحية لاتصلح على الإطلاق بأن يكون شرطيًّا ولو نفخ أحد الرجال الأقوياء به لطار في السماء . كان الشرطي يمسك الطفل حسن من قفاه، ويضربه من حين لآخر ليثبت للناس بالمحطة بأنه مازال قادراً وصالحًا لوظيفته.

جاء ت اللحظة المنتظرة.. الحدث الذي كان يبحث عنه وسط الزحام، لا حدث أكثر سخونة ومدعاة للتدخل من مصير هذا الطفل المساق إلى أقسام البوليس ليكون أكثر إجرامًا وتشرداً. تبلورت الفكرة

فى رأسه لينقذ الطفل من يد السلطة الغاشمة. أبصرته سالمة وحاولت اللحاق به، ولكنه اختفى بسرعة من أمامها - تأثرت شديداً ولكن بداخلها كانت تعلم أنها سوف تتقابل معه مرة أخرى. كان مايدور بخاطره فى هذه اللحظات كيف يتعامل مع الموقف بحرص شديد دون اللجوء إلى استخدام مسدسه وسط هذا الكم الهائل من الزحام.

(١٠)

عندما رأى الطفل حسن تذكر على الفور طفولته عندما كان طفلاً صغيراً كان شقيًا وخفيف الظل وخفة ظله جعلته محبوبًا من أهل الحى - وشقاوته كان بها طفيف من الجنون. تذكر عندما كان يلعب كرة القدم والجميع معجب بحرفنته وتنبئوا له بمستقبل باهر كلاعب يعرف كيف يحاور ويسجل أجمل الأهداف. هذا اليوم غبار الطقس يلوث المكان، والزياح تهب وكأنه يعلن عن تغير المصائر. تشاجر بعض المشاهدين وبعض اللاعبين، وشريف حظه سيئ للغاية.. أراد أن يسجل هدفًا ليمتع من أتوا لمشاهدة المباراة. كانوا يلعبون مباراتهم أمام منزل الشناوى جزار الحى. اعتادوا اللعب فى هذه المنطقة - والشناوى الغريب القادم على الحى كان غير سعيد لهذه الفكرة. كان ينشر الرعب بين أهل الحى بضخامته كالثور. خرج وطلب من الجميع أن يرحلوا من أمام منزله وأخذ يسب ويلعن. سكت الجميع وجهزوا أنفسهم للرحيل. فى تلك اللحظة شعر شريف بالحسرة والتعاسة لعدم إسعاد الكم الهائل من المتفرجين بهدف جميل يتحدثون عنه طوال اليوم. قرر أن يستمر وكأنه يتحدى مصيره، وأخذ الكرة من منطقة الدفاع وحاور وحده جميع اللاعبين. ومن منتصف الملعب، شاط الكرة بكل قوته ولكن الحظ لم يساعده؛ طارت الكرة إلى أعلى وقوتها حطمت زجاج نافذة من نوافذ منزل الشناوى، واخترقت الغرفة وحطمت لمبة الجاز التى أشعلت حريقًا بالغرفة. ساد

المكان حالة من الصمت والذهول، تنبل الجميع بمكانهم من صدمة الحدث. أصبحوا وكأنهم تماثيل غير مصدقين ماحدث. ارتسمت ملامح الغضب الشديد على وجه الشناوى الذى تحول إلى غول ثائر. اتجه إلى شريف الذى تسمر بمكانه، وبسرعة شديدة رفعه إلى أعلى بيد واحدة وبكل قوته دفعه على الأرض. تدخل أهل الحى محاولين تهدئة الرجل ولكنه لم ينصت وكأنه يقول لهم: هذا مصير من يعترض طريقى. أخذ شريف يتألم على الأرض، وبسرعة فلت من يده ولم يجد سوى الأحجار يلقيها عليه . وبسرعة شديدة تحول الموقف إلى معركة حجارة. الأطفال أصدقاء شريف وجدوا متعة باللعب مع الغول، الذى هرع مع عماله وأخرجوا السكاكين وحاولوا إمساك الأطفال. تعاطف أهل الحى مع الأطفال وتركوهم ينتقمون من الجزار. والبعض شجعهم وآخرون حاولوا تهدئة الموقف. ومن فوق أسطح المنازل نزلت الحجارة على الشناوى ورجاله كالقذائف - حتى حيواناته الخرفان والجواميس وجميع البهائم نالت من الحجارة ما يجعلها تترك أماكنها وتحاول الهروب.

الخسائر أصبحت للطرفين. جرح بعض الأطفال ونالوا عقاباً من أسرهم ولكنهم أيضًا نالوا مكانة عظيمة فى قلوبهم. فالعقاب كان خفيفًا جدًا أمام هذا الغول الذى تحول إلى وحش كاسر بلا حدود. الجميع تعاطف مع شريف الذى كان يدارى ألمه واستمر فى حربه معه وكأنه يعلن بغضبه لعدم تسجيل هدف جميل فى مباراته عن هدف أجمل. غبار الجو كان كفة ترجح للأطفال.. رجال الشناوى لم يستطعوا أن يروا الأطفال. قالت امرأة عجوز فى سخرية شديدة: يقولون إذا أردت الاستهزاء برجل سلط عليه امرأة، وإذا أردت الاستهزاء بامرأة سلط عليها الطفل. وأنا أقول لكم الآن: إذا أردت الاستهزاء بالإنسان سلط عليه الطفل فلا أحد يستطيع أن يوقف حدود الطفل؛ طفولته تجعلنا نسامحه على الخطأ. لا أحد يستطيع أن يوقف حدود الطفل إذا رغب.

الحرب بين الأطفال والرجال أصبحت لعبة، فبراءة الطفولة جعلتهم يشعرون بالحرب كلعبة جميلة - والشناوى أصبح فى مأزق كبير.. الجميع يلوم عليه: كيف يفعل ذلك مع الأطفال.

همس أحد ماسحى الجوخ فى أذن الشناوى قائلاً :

أعلن حربك على الرجال - آباء الأطفال - فبذلك لايلوم عليك الناس على ضرب الأطفال وهكذا تكون حرب رجال وبالطبع سوف تكون أنت الرابح، وإذا حكم الأمر استدع أصدقاءك الجزارين من المذبح لمساعدتك.

كانت هذه الفكرة آتية من رجل من أهل الحى الحقيقيين - وما دعاه لذلك هو لقمة العيش وشعوره بأنه أقوى إذا ظل فى صف الأقوى... ياللعار!

أصبح لذلك اليوم حديث، وحدث. أعرب الشناوى بطريقة لئيمة لأهل الحى أنه ضحية.. منزله احترق، والأطفال يقذفون عليه الطوب - ماذا يفعل؟؟

وما كان عليه سوى الانتظار لعودة الآباء من العمل والانتقام منهم شر الانتقام ليكونوا عبرة لأهل الحى جميعًا وحتى لاتتكرر المأساة.

(١١)

كان لابد لعقل شريف مهران أن يتصرف بحكمة شديدة لينقذ الطفل حسن من يد الشرطى العجوز. استخدام العنف فى مثل هذه المنطقة المزدحمة بالناس ورجال الأمن المسلحين - فكرة مجنونة لاتجلب سوى خسائر فادحة، وسوف تكون معركة غير متكافئة. تكونت الفكرة فى رأسه: الحيلة هى الوسيلة. لاشك أن وعيه السياسى وإدراكه بما يدور بكواليس السياسة جعله يفكر مثلهم، بل أفضل منهم لأن هدفه الأساسى هنا هو إنقاذ الطفل.

تذكر عندما قامت الهند وباكستان بتجاربهم النووية فعلوا ذلك

والعالم يظن أنهم سوف يحاربون بعضهم البعض. ولكن شريف ظن العكس تماماً أن تجاربهم النووية كانت محض اتفاق سرى بينهم ليعلنوا للعالم الأول أنهم أصبحوا فى صفوفهم.. والمسألة هنا ليست بالكمية، فقنبلة واحدة تكفي لتنشر الدمار.. وأعداء اليوم أصحاب الغد، وأصحاب الأمس أعداء الغد، وهكذا تدور الدوائر.

آه من هذا العالم القذر الذى يتحكم فيه عصابة من الأوباش تسعى لخرابه بدلاً من عماره. كانت فكرته وهو ينادى على الشاويش أن يظهر له قوته وسلطته - وإذ ا حكم الأمر سلاحه، ولكن دون استخدامه. ويالها من فكرة هائلة يستطيع القادة السياسيون استخدامها لو فهموا جذور هدفه الحقيقى.

- ياشاويش.

- عايز إيه يافندى ؟

- الواد ده عمل إيه؟

- ده واد شيطان - نشال درجة أولى.

- طب سبهولى.

- نعم! وانت دخلك إيه إنت - روح لحالك يافندى.

هنا أدرك أنه لابد وأن يمارس معه لعبته ويستخدم الكذب والمكر لإنقاذ الطفل. همس فى أذنه:

- أنا رائد أمن دولة... فيه جماعة إرهابيين هنا عايزين نقبض عليهم.. عايزك تسيب الواد ده معي - علشان ده هينفع فى خطتنا.

قال ذلك وهو يهمس بأذنه - وحتى يثبت له قدرته وسلطته رفع طرف جاكيت بدلته. وأظهر له سلاحه.. فعل ذلك بسرعة شديدة وكأنه يجرب قنبلته النووية بجوار عدوه.. وعلى العدو أن يقبل الأمر الواقع. وبالطبع لم يتحمل الشرطي الفكرة.. ففكرة الإرهابيين وحدها كانت كافية بأن تجعله يتبول في ثيابه، أما إشهار السلاح فكان

كفيلاً بأن يرسم على وجهه ملامح الارتباك والخوف.. وترك الطفل له.. والمنطقة أيضاً إذا أراد - فأسنانه أصبحت تتخبط ببعضها البعض. قدم له التحية العسكرية بسرعة، وأعرب له شريف أن يتصرف تصرفات عادية وكأنهم أهل أو أصدقاء.

تنفس الصعداء فقد نجحت فكرته.. ما أسهل أن تخدع إنسانًا بسيطًا ليس له دراية عالية بالسياسة أو التاريخ، فكلاهما الكذب محاط به أبد الدهر.

أحداث اليوم الآن أصبحت أكثر سخونة. كان يحلم بأن يكون لديه طفل يرعاه بطريقته الخاصة.

فجأة أدرك أنه أوقع نفسه في مأزق كبير.. إنقاذ الطفل كان خطوه أولى، والخطوات القادمة أكثر صعوبة من إنقاذه. مصير الطفل معه فكرة فاشلة لرجل ليس له مأوى ومطارد.. هل يتركه يرحل ويعود لنفس المصير؟؟ ولكن ما فائدة مغامرة إنقاذه؟؟

تساؤلات كثيرة دارت بخاطره لم يجد لها إجابات محددة، و لكنه فقط أصر على أن يكون عمل اليوم له جدوى. لم يخرجه من حيرته وتساؤلاته مع نفسه سوى سماع صوت الطفل نفسه يتساءل:

حسن: انت موديني على فين؟؟

شريف: اسكت.. انت مالكش حق تسأل.

حسن: هو أنا الملطشة بتاعتكم ولا إيه؟؟

شريف: انت مالكش أى حق في البلد دى - انت طفل، انكتب عليك التعاسة والشقا.

ثم أبصره بعين الشفقة، والطفل ينفر من وجوده معه. استسلم للأمر وسأل الطفل:

شريف: أنت جعان؟

حسن: آه.

(١٢)

جلس الاثنان فى مطعم.. وأخذ حسن يلتهم الطعام وكأنه لم ير مثله من قبل.

أخذ يتابعه بنظرات شفقه وحيرة.

شريف: أهلك فين؟

حسن: ماليش أهل.

شريف: مالكش أى حد خالص!

حسن: لا.

شريف: طب إيه رأيك فى اللى يلاقيلك بيت جميل تسكن فيه؟!

حسن: أنا مبسوط كده.

شريف: بلاش عِند واسمع الكلام - ده بيت أحسن من الأحداث.

حسن: انتوا كلكم كدابين.

شريف فى حدة شديدة: أنا مش كداب.

حسن: يبقى عايز حاجة؟؟

شريف، وكأنه يخاطبه بعقل الطفل وليس عقله: طبعًا وانت فاكرنى هخدمك ببلاش؟

حسن: يبقى عايزنى أسرقلك حد؟؟

شريف: لا.. من النهارده مفيش سرقة. فيه واحدة ست غلبانة عايشة لوحدها وفيه ناس كتير عايزه تؤذيها - عايزك تعيش معاها وتحميها وتعتبرها زى أمك.

حسن: يفتح الله.

شريف: أنا عارف إنك واد جدع وراجل.

حسن: يفتح الله.

شريف: طب أنا هقولك فزورة - افرض إنك فى الصحرا ومعك

واحدة عزيزة عليك قوى، وطلع عليكو الدبابة من كل مكان - والدبابة قرروا ياكلوا الست اللى معك الأول وبعدين ياكلوك هتعمل إيه؟

حسن: هم كده كده هياكلونى يبقى أدافع عنها وأموت راجل.

شريف: هايل.. هو ده عشمى فيك ياحسن.

حسن: أنا مش فاهم حاجة.. إنت ناوى تودينى الصحرا ولا إيه؟؟

شريف ضاحكًا: لا.. لا.. الحكاية ببساطة شديدة:

إنت ملكش أهل ولا بيت ولا ناس تسأل عنك - ولاحكومة تعبرك - يعنى بصراحة انت فى البلد دى صفر على الشمال.

أنا بقى هديك فرصة عمرك - لما تكبر هتعرف قيمتها.

بيت جميل، وست تعتبرها زى أمك، وفلوس لو عايز، وهدخلك المدرسة كمان عشان تتعلم وتسيبك من العيشة دى.

حسن: مفيش حد بيخدم حد الأيام دى ببلاش.

أدار شريف وجهه الى الجهة الأخرى - محدثًا نفسه سرًا : حتى انت كمان عرفت دى.

ثم وجه حديثه له محاولاً إقناعه:

كلامك مظبوط - الخدمة زى ماقلتلك تحميها وتدافع عنها.

حسن: والحكاية دى فيها موت.

شريف: وانت خايف من الموت، ده اللى انت بتعمله ده هو الموت نفسه - مش يمكن وانت بتنشل حد قطر يهفك، ولا عيل يغزّك بسكينه، ولا أمين شرطة يضربك.

على أى حال ياسيدى متخافش أنا هاكون جانبك واعتبرنى زى أبوك ولا أخوك.

حسن: يفتح الله.

أصابه الإرهاق فى محاولة إقناعه، وبدا على وجهه التعب من كثرة الكلام، ولكن قرر محاولته للمرة الأخيرة.

شـريف : جـرب وشـوف - وإن مـاعـجـبكش ارجع زى مـا انت مش هتخسر حاجة .

حسن : أنا مش مستريحلك .

هنا قـرر شـريف أن يتـرك الأمـر للطفل دون إلحـاح - فـالإلحـاح على الشيء يدعو الإنسـان بـالتظاهر بعـدم الاحتـيـاج حـتى لو كـان فى أشـد الحاجة . والآن فقط كان لابد أن يتصرف بحنكة خبـرته فى الحياة . وقف وقرر أن يرحل ، ثم قال له :

شـريف : أنا مـش هضـيـع وقـتى مـعك ، أنت حـر . . روح زى مـا انت عايز واعمل اللى انت عايزه .

تركه وذهب خارج المطعم بعد أن دفع الحسـاب . وبداخله يدرك تمامًا أن الطفل سوف يأتى إليـه - إن لم يكن اليوم سوف يكون غداً . علامات وملامح وجهه تدل على ذلك .

لم تمض لحظات قليلة وسمع صوتًا ينادى :

حسن : ياسعادة الباشا . . ياسعادة الباشا .

التفت للخلف ، واقترب الطفل نحوه :

أنا هاجى معك ، بس والنبى خللى بالك منى .

شريف : متخافش ياحسن ، اعتبرنى زى أبوك أو أخوك الكبير .

حسن : والست دى متريشة يا باشا ؟

شريف : غنية قوى - بس مش باين عليها .

حسن : ماشى يا باشا .

شريف : أنا مش باشا ولا بوليس . . أنا شريف مهران .

حسن : أمال عرفت اسمى ازاى ؟؟

ضحك وأراد أن يعرب لـه عن أنه ليس البوليس فقط من يعلم خبـايا الأمـور . . هناك أيضًـا من يعلم أكـثـر منهم . . ولـكنه أراد منه أن يدرك بنفسه الإجابة على سؤاله فعبر بصمته ، عن سعادته بقبول العرض .

(١٣)

سالمة لم تصدق نفسها عندما فتحت باب منزلها ووجدت الطارق شريف مهران.. انتابتها حالة من الارتباك والفرحة.. كانت على يقين تام بأنها سوف تتقابل معه مرة أخرى.

الرجال أصبحوا عملة نادرة فى هذا الزمن.. ولكنهم لايتخلون عن الضعفاء أمثالها. لم تلاحظ وجود حسن معه.. فقط تنظر إليه بلهفة وسعادة... شعرت برعشة داخلية وكأن سلكًا كهربائيًا مس جسدها ثم حرك الدم والمشاعر بداخلها.

شريف دخل الى المنزل وخلفه حسن وتصرف وكأنه واحد من أهل المنزل. لم تبال بذلك كثيراً.. سعادتها بوجوده جعلتها تفقد تركيزها.. جلس على الكنبة وبجواره حسن ثم عرض عليها الأمر بأن يبقى حسن معها بالمنزل. كانت لهجته شديدة الحدة وبها لغة الأمر وكأنه ضابط يعطى أحد جنوده أوامره وعلى الجندى أن ينفذ. لم تجد سالمة سوى أن تتخلى عن مشاعرها وتعلن رفضها وتعرب عن عدم ارتياحها بلهجته، قالت فى صوت عالٍ:

سالمة: حيلك.. حيلك.. انت مين إنت؟؟ مين اللى اداك الحق تأمر وتحكم فى بيتى وتكلمنى بالطريقة دى؟؟

شريف: أنت طول عمرك عايشة مفيش حد بيسأل عنك - ودلوقتى لما حد يسأل عليكى تتكلمى عن الحق.

اشتد الجدال بينهما ووصل حدته - وحسن يراقب مايحدث وكأنه ينتظر مصيره.

قرر أن يحزم الأمر بسرعة.. أخرج محفظته من جيب الجاكيت، وألقى ببعض النقود الورقية على المنضدة، ثم نظر إلى وجهها وهى تنظر للنقود.

شريف : دول خمسمية جنيه لما يخلصوا هديكي غيرهم.. تخلى بالك من الواد ومن النهارده مفيش بيع جرايد.

أصيبت بذهول شديد، غير مصدقة أنها أصبحت تملك هذا المبلغ الكبير. وهو ينظر إليها وإلى تعبيرات وجهها المتغيرة.

كان يدرك من بداية الأمر أن الأموال سوف تحزم الأمر.. ولكنه أراد أن يعطي للاختبار فرصة الحدوث.. ليؤكد لنفسه إحباطه الشديد بالعالم المادى القذر الذى تأثرت به سالمة - ولكنه عاد وقال لنفسه إنها محنة.. محنة بسيطة وسوف تمر مرور الكرام.. فهو مازال مؤمناً بطيبة قلبها.

عادت تستفسر الأمر بصوت هادئ، وتسأل من هو الطفل.

شعر شريف بإرهاق شديد، وقرر الانصراف. عرضت عليه أن يبقى معهم يأكل وينام بمنزلها إذا أراد. وجدها فرصة طيبة، فأحداث اليوم كافية. وخروجه من المنزل قد يعني حدثاً آخر لا يريده الآن. فقط يريد لجسده المرهق أن يرقد على سرير ويذهب فى نوم عميق.

قضى يومه مع سالمة والطفل. شعر بدفء المنزل. نسى الأوغاد تماماً. فقط تذكرهم عندما خرج لقضاء بعض الحاجات، وكأن العالم داخل المنزل يختلف تماماً عن خارجه. أصابته حسرة شديدة على هذا البلاء الذى أصاب هذا البلد الكبير. لم يتحدث كثيراً كعادته. وفى الليل بات فى غرفة نومها، وعلى سريرها، ورقدت هي بالغرفة المجاورة مع حسن. شعرت وكأن الحياة عادت إليها. كانت تتحرك طوال اليوم بالمنزل بين رجل وطفل وكأن حياتها أصبح لها معنى ..

(١٤)

فى الصباح خرج من منزلها، واعداً بأن يعود لهم قريباً.

فى طريقه للدكتور عزيز أستاذه ومثله الأعلى أخذ يسير بخفه

ورشاقة وخطوات سريعة.. وكعادته لم ينظر خلفه، ولو نظر خلفه لوجد الضابط كمال يراقب خطواته وهو يرتدى نظارته الشمسية. ولكنه لا يخشى الكلاب التى تلهث خلفه. هو رجل.. يحبذ الرجال أمثاله الذين يأتون من الأمام وليس الذين يطعنون من الخلف، يؤمن بأن من ينظر خلفه يكون فريسة سهلة للمطبات الأمامية.

تذكر حلم الأمس، أو بالأخص كابوس الأمس. حلم بنفسه يجلس فى قصر فرعونى على كرسى العرش وبجواره سالمة وأحلام. والحرس فى كل مكان بزيهم الفرعونى. كان يمسك بيده عصا فرعونية - ثم دخل عليهم بعض القادة المتآمرين عليه ومعهم تابوت. لم يدرك سر المؤامرة - أعلنوا له أن التابوت بحجمه وللتأكد من ذلك عليه أن يرقد بالتابوت، وعندما رقد بالتابوت لقياس الحجم أغلقوا عليه التابوت.. أخذ يصرخ ويضرب التابوت بقبضة يده، ولكن دون جدوى. لحظات قليلة وسمع أصواتًا تصرخ. ودماء تسيل على التابوت وتصل إلى ملابسه وتلوثه. صرخ بأعلى صوته: ياكلاب ياكلاب. وهو يضرب بكل قوته على التابوت حتى اختنق وأصبح يتنفس بصعوبة شديدة. ثم أغمى عليه. ومن بعد، سمع صوت ماء النيل.. علم أن التابوت يسير على نهر النيل. أخذ يصرخ ويضرب التابوت بيده مرات عديدة.

ثم سمع صوت الغربان.. طغى الصوت على أذنيه حاول أن يسدهما ولكن الأصوات كانت عالية. لم يستطع. شعر بنفسه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. لم يجد سوى مسدسه. أطلق النار وهو يصرخ بأعلى صوته: ياكلاب.

ثم أفاقته سالمة من نومه.

تعجب من أمر هذه الهلوسة بين الماضى والحاضر.

(١٥)

كـان دكـتـور عـزيز يجلس على مـقـهى بحى الظـاهر.. وبانتـظار شـريف مـهران.. يرتدى بدلته الأنيـقـة وقـبعتـه الفـرنسيـة الزرقـاء التى تعطى مـلامح وجـهـه السـمـين بعض الوسـامة والأنـاقة وبجـواره عكازه الخشبى .

عزيز فى الخـمسيـن من عـمـره دكـتـور جامعـة مـركـون على المعاش بمحض إرادته.

أدرك أن طلاب اليـوم لـيس لديهم الـرغـبـة القـوية بالعلم.. أصـابهم البرود التام. الحصول على الشهادة الجامعية للافتخار بها أكثر من العلم نفسه.. يدركـون جيـداً - بعد الانتـهـاء من دراسـتـهم - صعوبة الحصول على عمل، نظراً لتقدم التكنولوجيا الحديثة والوضع الاقتـصادى العالمى الراهن. لذلك فـالبـعض منـهم أقلع عـن فكرة العلم.. والحـصـول على الشهادة سـوف يعطيـهم أيضـاً فـرصة قضـاء فترة أقل بالخدمة العسـكرية - وهذا دليل واضح على كـره الإنـسـان لفكرة الجيـش. ليس لديهـم الـرغبـة القوية بالحياة لتغيير النظام حولهم..كارثة كبرى لا يعلم هو نفسه من المسئول الحقيقى عن هذه الكارثة؟؟

ولذلك قرر اعتزال مـهنة التدريس.. قرار صائب - لا يحق أن تعطى العلم لمن لا يسـتـحـقـه، والبـاحث عن العلم سـوف يأتى إليـه. تكريس مجهوده الشخصى لتغيير العالم حوله هو ما يحبذه.

ما أسوأ هؤلاء الرجال الذين يريدون تـغيـيـر هذا العالم، معتقدين أن نظرياتهم هى الأصح وعلى الجميع أن ينصت، وأحلامهـم الجميلة لابد وأن تكون حقل تجارب للجميع. هم من يملكون الأحلام الجـميلة للناس ولكنهـم لايملكون القـوة. وعندما يتحقق حلم امتـلاك القوة تصـبح أحلامهـم الجميلة كوابيس، دخانًا يطير ويصبح غباراً يخنق المكان.

لا شك أن شريف مهران تلميذ نجيب وهو خيطه الأول لتنفيذ هدفه، والرجل الثالث فى منظمته - بل يعتبره قائد دفاع لتحرير هذا العالم الموبوء من الأوباش الذين يتحكمون به؛ يدخل الرعب فى قلوبهم، رجل لايرغب الحياة.. وجنونه يعطيه الحياة.. ذكاؤه وحدته وحسن تصرفه تجعله ينجو من الهلاك بأعجوبة شديدة.. حنكته بالحياة والأشخاص وإخلاصه وحبه للوطن تجعل الوصول للهدف أسرع.

عندما وصل إلى المقهى ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه دكتور عزيز - وكذلك شريف.

حيا أحدهم الآخر وجلس بجواره وهو يزيح عكازه على جنب، ودخل القهوجى عليهم.

عزيز للقهوجى : هات قهوة مظبوطه لشريف ياعبده؟؟

القهوجى فى صوت عال، مع دخول كمال إلى القهوة وهو يحاول أن يجلس بالقرب منهم:

وعندك قهوة مظبوطة وخللى بالك منها لحسن الدم يبقى للركب.

ضحك الاثنان.. ودار الحوار بينهما على هذا العالم القذر الذى تحول إلى غابة كبيرة. الكبير يأكل الصغير.. العالم الأول المتقدم الذى يملك القوة والمال يأكل العالم الثالث.. الأفارقة يموتون جوعاً.. يقتلون بعضهم البعض فى سيراليون بطريقة يفظع الحيوان من بشاعتها. هذا العالم الأول الشيطانى الذى يخرب الأرض بكل قوة من أجل مصلحته الخاصة ومطالبهم الخاصة دون المبالاة بالإنسان. يرتكبون أفظع الجرائم باسم الإنسانية ضد الإنسان نفسه.. من هو الإنسان؟؟ إنسان العالم الأول.. الذى يأكل ويشرب وينام ويعيش حياة مترفة على حساب آخرين يموتون جوعاً!! أعلن شريف أن القنابل النووية والحروب الأهلية سوف تنهى الحضارة الحديثة التى لم يشهد التاريخ

مثلها من قبل، وانهيارها سوف يأتى من سر تقدمها - وسوف يكون أفظع انهيار فى تاريخ البشرية.

الإنسان هو الشيطان، يبرز قوته فى شيطانيته وضعفه فى إنسانيته.

وصل الحديث جمرة سخونته. كل منهما يعبر عن رأيه بصدق عن هذا العالم القذر. ثم أخذا يتحدثان عن الدين والفلسفة والتاريخ والفن.. وحدثه شريف عن سالمة وحسن. وكمال ينصت إليهم، ويلعن اليوم الذى ولد به ليكون شاهداً على هذين المجنونين الذى لم يع شيئاً مما يتحدثان به - أليس من الأفضل له أن يذهب الى قسم بوليس ويضرب مواطناً صالحاً ؟؟! أليس من الأفضل أن يلتقط امرأة عاهرة ويأخذها معه الى منزله ويعذبها ويحرق جسدها بعقب سيجارته؟! بدلاً من الإنصات إلى هذا الحديث الذى لم يفهم له مغزى ولامعنى.. هؤلاء المجانين الذين يظنون أنهم الأفضل.

ساد الصمت بينهم لحظات وارتسم القلق على وجه شريف. سأله عزيز: ماذا بك ؟؟

شريف: الحلم.

عزيز: الحلم تانى! على فكرة أنا كلفت بعض الزملاء المتخصصين فى التاريخ الفرعونى قالوا لى: إن الروح بتاعتك ماليهاش علاقة لا بتوت عنخ أمون ولا إخناتون.. الشبة متقارب لكن المبادئ مختلفة.

شريف، فى عصبية: يادكتور.. فيه مصيبة يادكتور.

عزيز: خير إن شاء الله.

شريف: الحلم تغير - أوزوريس.. أوزوريس يادكتور.

عزيز: أوزوريس؟! بقولك إيه ماتسيبك من الأحلام دى وتخلى بالك من اللى انت فيه إحنا قدامنا مشوار طويل - وانت أشجع منهم كلهم.

شريف: حاجة خارج إرادتى أنى أحلم - ساعات بحس إن فيه روح

فرعونية ماسكة فيّ ومش عايزة تسيبني وبتقول: الناس دى مش ناسك والحياة دى مش بتاعتك ياترجع لنا - ياتغيرهم.

عـزيز: اسـمع ياشـريف خلينا فـى الجـد، الدهشـان ياشـريف لازم نخلص منه عايزين شباب فايق.

شريف: هو كده الكلام.. ده بتاعي أنا سيبهولى. إمتى ؟؟

عزيز: فى أقرب وقت ممكن بس خلى بالك كويس قوى - لأنه عايز يخلص عليك.

شريف: متخافش يادكتور.

عزيز: فى طريقك له خللى بالك من الشيخ زيدان.

شـريف: ولا يـهمك يادكـتـور.. ولو حـصل متنسـاش يادكـتور ورد الروزيس الأبيض على قبرى.

عـزيز: فى لهـجة مـرة.. أنا يظهـر همـوت قبلك ياشـريف - همـوت من الحسرة على اللى بيحصل.

شريف: لا.. متخوفنيش.

عزيز: خايف ياشريف؟! حاجة جديده علىّ إنى أعرف إنك بتخاف.

شريف: مفيش إنسـان فى الدنيـا دى مبيـخافش مهمـا تكون قـوته. الحاجة الوحيدة اللى تخلى الإنسان قوى.. ضعف الآخرين.

أنا بس خايف أموت قبل ما أشوفك على الكرسى اللى تستحقه.

عزيز: على العموم خلى بالك من الشيخ زيدان.

شريف: خير وسيلة للدفاع الهجوم.

عزيز: بمناسبة خير وسيلة للدفاع الهجوم تلعب شطرنج.

شريف: ألعب.. بس على شرط: أنا اللى هغمى عينى بمنديل المرة دى ؟!

عزيز ضاحكًا: ماشي ياسيدى.

(١٦)

عقب منتصف النهار اخترق شريف مهران حي الغورية وسط الزحام بخطوات ثابتة وإصرار شديد .. والسعادة على وجهه سمة واضحة، والحذر.. لابد من الحذر، لابد وأن ينفذ الخطة التى رسمها له أستاذه عزيز بكل دقة، وأن لايظهر للأوغاد نفسه، رجال الدهشان منتشرون بالحى.. لاحظهم ولكنهم لم يلاحظوه.. فقط لاحظوا كمال ورجاله بعربة البوليس خلفه.

اجتمع قوم من بلدنا ولكنهم غرباء عنها.. اجتمع تجار السموم البيضاء فوق سطح منزل عال ليعقدوا صفقاتهم الجديدة.

صعد فى سلالم المنزل المجاور بحذر شديد - وخفه غير عادية. حدث اليوم مختلف كثيراً عن حدث الأمس، بالأمس الطفل المشرد أصبح له منزل وامرأة ترعى شئونه.

وليتعلم الأنذال من رجل يعتقدون أنه مجنون. حدث اليوم سوف يسقط إنسانًا قتيلاً.. إنسانًا يخرب عقول الشباب والناس.. شيطان لا يختلف كثيراً عن شياطين السياسة الذين يستخفون بعقول الشعب.

حدث اليوم سوف يتحدث عنه المجتمع، الرأس المدبرة له - دكتور عزيز - رجل يستحق الاحترام والتقدير. سوف يسعد له الشيخ زيدان والسلطة وسوف يسعد الرأى العام على الرغم من دمويته. سوف يحزن فقط من يريد الدمار لهذا البلد.

أخذ وضعًا أمنيًا ثابتًا من على سطح المنزل المجاور، وكشف سطح المنزل المهدوف. رفع نظارته الشمسية السوداء من عليه وجهز سلاحه. الدهشان يجلس على المنضدة ومعه بعض الرجال يتحدث إليهم - ورجاله حوله بالسلاح. أن يصيب الهدف ويتخلص من سر البلايا وتنتهى رحلة المليون . محتاج إلى تركيز شديد. الدهشان يتحدث بكل

أعضاء جسده.. رصاصة واحدة فى نفوخه هذا ما يحتاج.. ولكن الأمر ليس بالسهل. لقد حذره عزيز بأن لايظهر نفسه حتى يشك التجار بعضهم ببعض، فهؤلاء التجار قوم مصابون بالوسواس، وما أن يحدث مثل هذا الحدث فسوف تحدث معركة بينهم، وهذا مايريده ليخلصوا بعضهم على البعض. فكر شيطانى ياعزيز أين تعلمت كل هذه الأساليب ؟! المهمة أصبحت صعبة للغاية - كذلك قرر شريف أن يشهر نفسه.. ينادى عليه بصوت عال فيلفت انتباهه نحوه وبسرعة يضرب ضربته. فعل ذلك بخفة غير عادية وسط انبهار الجميع. أدرك الدهشان أنه شريف مهران أصاب الهدف.

وقع الدهشان على الأرض مصابًا، آمرًا رجاله بصوت متقطع:

- اتصلوا بالشيخ زيدان على الموبايل، قولوا له شريف مهران فى الغورية.. مش عايزه يخرج حى.

هرع بسرعة بعد أن ضرب ضربته وقفز من سطح لآخر بخفة - ولكن رجال الدهشان خلفه.. تبادلا طلقات الرصاص. أخذ يهرع وهم خلفه.. لن يتركوه وشأنه.

نفد رصاص مسدسه وتعب من كثرة الجرى. وكان لابد للقدر أن يتدخل وينقذ شريف من يد رجال الدهشان.. كان القدر متمثلاً فى كمال ورجاله.. صوبوا الرصاص على رجال الدهشان فرجعوا للخلف، وأخذ كمال المسدس من يد شريف. تبادلا النظرات الحادة ووضعه بالبوكس. شعر شريف بارتياح شديد لوقوعه فى يد القانون - أرحم بكثير من الوقوع بيد رجال الدهشان - هو الذى يعرف القانون ويلعب على أوتاره كالفنان الماهر.

وإذا حكم الأمر فعزيز لن يتركه وحده.. ولكنه سوف يلجأ إليه إذا أغلقت جميع الأبواب.

(١٧)

كان الشاب أحمد يجلس بعربة البوكس الخلفية مستغربًا كل هذه الأمور حوله - بملابسه المهترئه ولحيته الطويلة والبؤس الشديد الواضح على وجهه وحياته. أمر كمال أحد المخبرين أن يضع الأساور الحديدية بيد شريف وأحمد - ونفذ الآخر بسرعة الأمر - جلس كمال معهم بالخلف ومعه أحد المخبرين. تبادل الأربعة نظرات تعجب، وساد الصمت ولم يسمع سوى صوت محرك العربة، والتى أخذت تسير بلا هدف واضح. كان كل مايدور بخاطر شريف كيف سوف يفلت من هذه الكارثة قبل أن تصل إلى أقسام البوليس. لايملك السلاح مصدر قوته، ويده أصبحت مقيدة بيد رجل آخر لايعرفه. أصابه القلق. كمال كان يتأمل شريف من تحت نظارته الشمسية. نظرات الكبرياء واضحه على وجه كمال. يكره مثل هؤلاء المتكبرين الذين يعتقدون أنهم الأفضل. أراد أن يستفز غروره ولكن دون أن يدخل معه فى جدال حتى لاتنكشف مهمته. اخترقت السيارة الصحراء قريبًا من الاهرامات. أبدى أحمد الاستعجاب وتساءل إلى أين هم ذاهبون؟؟ وجد كمال الفرصة آتية على طبق من ذهب.. لقد أخرجهم الشاب من الصمت، والآن لابد وأن يستعرض قدرته وقوته وبسخرية شديدة: رايحين على الكورنيش ياروح أمك.

كان هذا الرد كفيلاً بتغيير ملامح وجه شريف، ولكنه لزم الصمت، وأدرك الضابط أنه أصبح يمتلك زمام الموقف فتساءل بكبرياء شديد:

- إنت ضربت صاحب البيت ليه؟
- ما أنا قولتلك - عايز يطردنى من الشقة؟؟ أروح فين أنا؟؟
- تقوم تضربه!! خلاص مفيش قانون فى البلد؟؟

منذ وقت ليس ببعيد سقط الدهشان قتيلاً - والخبر سوف ينتشر عاجلاً. نسى هذا الحدث على الفور، ووجد متعة أخرى ترضى جنونه؛ لايوجد متعة أكثر من أن يتحدث مع رجل سلطة عن قانون هذا البلد - هو العبد المطيع المسلوب الإرادة والخاضع لكل سلطة تأتى.

رد الشاب بصوت خافت جدًا، دون أن يسمعه سوى شريف بجواره - وبسخرية شديدة:

- قانون !! يبقى إن شاء الله هانام في الشارع.

- بتقول إيه ياروح أمك.

قال هذه العبارة مؤمنًا بعبارة اضرب المربوط يخاف السايب.

ولكن حقيقة الأمر أنه على الرغم من علمه بحياة شريف مهران لم يفطن لحريته وتمرده. وتعيس الحظ من يحاول اختباره فى تلك الأمور.

- مقلتش حاجة. قاله أحمد محاولاً تفادى الجدال.

وكان لابد للسان الأخرس أن ينطق وللغضب أن ينفجر. تمالك شريف أعصابه وببرود شديد قال للضابط:

قانون إيه ياضابط انت اللى بتتكلم عنه؟؟

عندما سمع المخبر هذه العبارة قفز من مكانه بسرعة وكأن خازوقًا اخترق كرسيه ورفع يده محاولاً أن يضرب شريف. أوقفه كمال بسرعة وعاد إلى موضعه الأصلى وضحك نصف ضحكة ساخرة وعلم أنه سوف يدخل فى جدال شيق.

- حلو.. الكلام هيحلو - قانون البلد.

- وقانون البلد ده اداك الحق تقولّه ياروح أمك؟!

وفى تلك اللحظة ود أن يأخذه معه إلى قسم البوليس ليشاهد بنفسه كل أشكال القانون.

لعن فوزى البنا الذى حرمه من هذه المتعة - وكان لابد وأن يتصرف بحكمه قبل أن يفقد برود أعصابه ويتركه يهرب - ضرب بكل قبضة

يده وقوته على خارج السيارة وطلب من السائق أن يتوقف، وعندما وقفت السيارة قفز خارجها ثم نظر إليه قائلاً : عن إذنك.. كلامك عمل لى زنقة.. هاروح أفك زنقتي وأجيلك.

ثم للمخبر: تعالي يالطفي فك زنقتك انت كمان.

المخبر: ونسيبهم لوحدهم يا افندم؟!

- سيبهم وعلى الله حد يفكر...

قاله وكأنه يدعوهما بالفعل للهرب، وعلى الفور أدرك شريف ذلك. لم يترك للأفكار أن تسيطر على عقله. فكرة واحدة سيطرت على عقله: الهروب - ولكنه مقيد بيد رجل آخر. سأله إذا كان يجيد الجرى. أجابه الآخر بالموافقة، فقفز الاثنان بسرعة وأخذا يهرعان فى الصحراء، وأبصرهما كمال وهو يتبول وبجواره المخبر، وابتسم ابتسامة خفيفة شعر بعدها بالارتياح الشديد؛ شعر وكأنه مخرج أو مؤلف جيد يرى عمله يخرج للنور ولكن فقط أمام عينيه - بلا جمهور - وهذا ما كان يحزنه.

(١٨)

أخذ الاثنان يلهثان من كثرة الجرى، حتى تباطأت خطواتهما بعد أن فطنا إلى أنهما بعيدان تماماً عن الخطر واقتربا من منطقة الأهرامات. أصاب شريف الشك نحو أحمد؛ ظن أنه خدعة من رجل البوليس الذى تركهما يهربان بسهولة - وقد يكون هذا الشاب المقيد بيديه رجلاً من أعوانه، فالتزم الصمت. وأصاب أحمد الفضول.

أحمد: انت حكايتك إيه يا أخينا؟؟

شريف: أنا ماليش حكاية.

أحمد: مالكش حكاية: ضرب نار - مسدس- وأسلوبك فى الكلام مع الضابط ـ وكل ده مالكش حكاية!! أمال أنا اللى ليه حكاية؟!!

شريف : ماتشغلش بالك - أهم حاجه نفك الحديد .

أحمد : تعرف . . أنا استريحتلك كده لله في الله . الكلام اللى أنت قولته للضابط كان جوايه عاوز أقوله له . . بس خفت ومقدرتش .

شريف : خفت من إيه ؟ !

أحمد : اتربينا على الخوف : أبوك يضربك لو عملت حاجة غلط . . أمك تضربك لو مانمتش بدرى . . المدرس يضربك . . الناظر يضربك . . وكل حاجة يخوفوك بالعسكرى .

كل ده ومش عايزنى أخاف ؟ !

شريف : صاحب البيت عايز يطردك ليه ! !

أحمد : الأوضة اللى عايش فيها هى اللى حيلتى من الدنيا - اتأخرت على الإيجار وهو نفسه ومُنى عينيه ياخد الأوضة ويجوز فيها ابنه .

شدينا مع بعض - اتخنقت من العيشة السودة - قمت مطلع غلبى فيه .

شريف : بس انت بهروبك معى كده وديت نفسك فى داهية أكبر ؟ ؟

أحمد : بصراحة ، انت أول واحد يدافع عن حقى . . من غير ما أعرفك ولا تعرفنى . حاسس بالخجل من نفسى - ولما طلبت منى أننا نهرب مقدرتش أرفض طلبك . . كان لازم أرد الجميل وأصالح نفسى .

وعلى أى حال زمان صاحب البيت رمى العفش فى الشارع .

يقف فى مكانه وينظر إليه . . وتلقائيًا يقف أحمد . . فيرفع شريف يده غير المقيدة ويقول : أنا شريف مهران .

أحمد ، يمد يده إليه ويتصافح الاثنان : أنا أحمد الشاعر .

شريف مبتسمًا : والشاعر ده باسم العائلة ؟ !

أحمد وهو يسير : لا . . أصل بقول شعر ، فطلعت علىّ أحمد الشاعر .

(١٩)

حى باب النصر مثوى ذكريات طفولة سعيدة وبعضها أليم.. أخترق الاثنان فى الظلام الدامس زقاقًا صغيراً، حتى وصلا ورشة مغلقة.

أبصر شريف المنزل القديم الواقع فوقها ثم صاح موجهًا حنجرته إلى الدور الأول.

شريف : عكورة.

لم يرد أحد على النداء، فصاح مرة أخرى بصوت أعلى. لحظات قليلة وخرج رجل ضخم البنية إلى بلكونة المنزل يرتدى فانلة حمالات بيضاء - نظر أسفله وتساءل بصوت أجش.

عكورة : مين؟؟ لم يساعده الظلام على رؤية المنادى.

شريف : أنا شريف مهران يا عكورة.

انتفض الرجل سعيداً قائلاً : شريف مهران أنا فى حلم ولا علم.. اطلع يابن مهران.

شريف : لا.. انزل أنت - وهات معاك مفاتيح الورشة.

عكورة : حمامة.

لم تمر دقائق معدودة حتى خرج الرجل من المنزل وهو يرتدى بنطلون بيجامة ووضع قميصًا أسود فوق فانلته ولبس شبشب «زنوبة» - وهو يمسك بيده بعض المفاتيح. يتعانق شريف وعكورة.

عكورة : أخيراً جيتَ تزور أهلك وحبايبك.

شريف : أنا جايلك فى خدمة. وهو يشير إليه بالأساور الحديدية.

وهنا أدرك أيضًا وجود أحمد الشاعر معه. لفظ متسائلاً بسخرية وهو يتجه نحو باب الورشة.

عكورة : والأخ سوابق؟

أحمد، فى سخرية شديدة : إرهابى

عكورة : الله أكبر - باركعه فرض بفرض.

أحمد : طب وأنا مالى دى حاجة بينك وبين ربنا .

عكورة : أهو كده الإرهابين ولا بلاش.

رفع الباب الحديد الثقيل بيد واحدة وكأنه يرفع طبقًا خفيف الوزن.. ودخل الجميع إلى الورشة .

عكورة : خُشّوا على المنجلة.

لم تستغرق عملية قطع الحديد وقتًا طويلاً.. وبعدها تحسس شريف يديه وشعر بحريته مرة أخرى. وكذلك أحمد الشاعر.

عكورة : تعالوا بقى نطلع فوق تتعشوا وتشربوا شاى.

شريف : لا متشكرين ياعكورة.. مرة ثانية.

عكورة : طب علشان خاطر الضيف اللى معاك.

شريف : مرة ثانية. متشكرين قوى ياعكورة.

عكورة، وهو يميل عليه : أنا عايز منك خدمة صغيرة.

شريف : أمرك ياعكورة.

عكورة : الواد حسنى أمين الشرطة نصب علىّ فى ألف جنيه.
وكل ما آجى أكلمه يقول لي : لو ماسكتش هاخدك كعب داير.

شريف : طيب دى جديدة عليك !

عكورة : أنا كبرت على المواضيع دى - مايغركش الصحة دى - ده كله على الفاضى وعندى عيال. وده كمان واخد فلوس نص أهل الحاره وشايف نفسه علينا قوى.

شريف : خلاص يا عكورة، لما تشوفه قوله شريف مهران بيسلم عليك ونفسه يشوفك.

عكورة، فرحًا وهو يعانق شريف ويقبله غير مصدق :

الله يخليك يابن مهران.. أنا كنت عارف إنك راجل. ثم ينظر إلى الشاعر قائلاً: الله أكبر.

والشاعر مازال مستغربًا الأمر. يحيي شريف صاحبه ويخرج ومعه أحمد الشاعر وخلفهم عكورة:

ربنا معكوا يارجاله.. مع السلامة.

يصل شريف إلي خارج الورشة ومعه الشاعر، ثم يلتفت إلي عكورة وبصوت عال قائلاً: عكورة، لما تشوف حسنى قوله - قوله ماينامش الليل طول ماشريف مهران حي في المدينة.

دوى الصوت في المكان بصداه، وخرج الاثنان من باب النصر. وشعر شريف بالجوع فسأله بصوت خافت.

شريف: أنت جعان؟

أحمد: ميت من الجوع، لكن مفيش ولا مليم.

شريف: ولايهمك، أنا معي.. تحب تاكل كباب؟

أحمد: كباب شعبي؟

شريف: لا أفرنجي.

الشاعر: في الحالة اللي أنا فيها دي لو جبت لي أم الحمة هاكلها.

ضحك الاثنان وسارا في طريقهما.

(٢٠)

مطعم الحاتي بوسط البلد.. كان مزدحمًا، جلس الاثنان على منضدة مليئة بجميع أنواع السلطات. انشرح صدر أحمد ولم يصبر.. وأخذ رغيف العيش وأخذ يأكل بسرعة. انتقل من سلطانية إلى أخرى وشريف يبصره - وعندما حضر الجرسون ومعه اللحم المشوى ورائحته الفائحة أدرك أحمد أنه لايحلم وأنه يعيش لحظة من لحظات السعادة. نسي مشاكله أمام هذا الكم الهائل من الطعام. حتي شريف نفسه نسي همومه وأخذ يتذوق الطعام بمزاج خاص، وكأن الطعام المرصوص على المائدة يجعل الإنسان ينسى مطالبه.

تساءل أحمد وفمه مملوء بالطعام:
الشاعر: هى الناس دى كانت بتضرب عليك نار ليه؟؟
شريف: إحنا ناكل وكل واحد يروح لحاله.
الشاعر، مستغربًا: أنت شايف كده.
شريف: آه.. إحنا جمعنا كلابش، والكلابش انفك.
الشاعر: إخص عليك وأنا فاكر بناكل عيش وملح سوا دلوقتى وبقينا أصحاب..
ووديت نفسى فى داهية علشانك.
شريف: عايز تعرف حكايتى ليه؟!
الشاعر: حب استطلاع.. أنت خايف منى ؟
شريف: الخوف مالوش مكان فى قلبى .. مات من زمان.
الشاعر: طب فضفض عن نفسك.. يمكن أقدر أساعدك.
شريف، محاولاً استفزازه: انت مش قادر تساعد نفسك هتساعدنى!!
الشاعر: وليه الإهانة دى .. يوضع سره فى أضعف خلقه!
شريف: تحب أحكى ليك حكايتك؟
الشاعر: وانت تعرف حكايتى منين؟؟
شريف: حكايتك فارغة.
الشاعر، وهو يزيح الطعام من أمامه. باستغراب شديد.. إيه؟؟
شريف: حواديتكم كلها فارغة..
أنت شاب شكلك كده يادبلوم تجارة - يابكالوريوس تجارة. خريج جامعة شغال موظف بتروح الصبح تمضى، وتمشى وتقعد تتسكع فى الشوارع. تبص على البنات وتقعد طول اليوم على القهوة، وتحلم وتحلم إنك تلاقى شقة وتحوش مهر وتتجوز وتخلف - وتقعد كل يوم تدور على عقد عمل لدولة عربية وترجع مصر تتنمرد شوية على أهل بلدك وتتجوز وتخلف ويبقالك كرش وتقرا الجرايد كل يوم وتحل الكلمات

المتقاطعة. هى دى حكايتك - كلامى مظبوط؟
الشاعر، فى حسرة شديدة: صح.. أغلبه صح.
شريف: مش قولتك حكاية فارغة!! حواديتكو فارغة، وماتهمنيش.
الشاعر: وياترى سألت نفسك مين السبب فى اللى إحنا فيه ده؟؟
شريف: مش مهم مين السبب؟
الشاعر: لأ، مهم، المجتمع والحكومة همّ سبب البلاوى اللى إحنا فيها؟
شريف: المجتمع هو أنت.. والحكومة برضه أنت.
أنت السبب - أنت واحد من المجتمع مطرود من سكنك ومش لاقى تاكل وشكلك عنده ثلاثين سنة وعمرك ما اجتمعت مع واحدة ست وقاعد مستنى!! مستنى إيه أنا مش عارف!!!
والحكومة هو أنت برضه: عمرك ما اخترت حزب تنضم إليه، أى حزب مش مهم مقتنع بالحزب ولا لأه - لكن اختيارك للحزب معناه إنك ليك رأى سياسى لكن انت اخترت إنك تكون بعيد ومستنى معجزه تحصل.. حد تانى يعمل اللى أنت مش قادر تعمله - ولاّ يقول اللى أنت مش قادر تقوله. انت يا أحمد إنسان عاجز - عاجز، كل وسيلته الوحيدة اللوم. إنسان كسول تستحق اللى بيحصلك وأكتر.
شعر بإهانة شديدة - أزاح الطعام من أمامه وكأن شريف أطعمه بما يكفيه. أصابته الحسرة على نفسه وشعر بعجزه الحقيقى عندما تنبأ شخص لايعرفه بحياته. حاول أن يدارى ألمه وقال متحدياً: وأنت حكايتك زينا.. ولا بطل محدش يعرف عنه حاجة؟!
شريف: وهو يمضغ بعض الطعام: أنت شوفت بنفسك.
الشاعر، محاولاً رد الإهانة: أنا شايف إنك مغرور ومتكبر، ومفيش رحمة فى قلبك!!
شريف: الزمن اللى إحنا فيه ده العواطف تيجى آخر حاجة.
الشاعر: إنت غلطان - من غير عواطف مفيش حياة.

شريف : لو انت شايف كده قوم ادفع الحساب بالعواطف بتاعتك .

الشاعر : ولو حصل ده .

شريف : ها فتح لك قلبى على طول وأحكى ليك حكايتى .

الشاعر : إن جيت للحق حكايتك عندى دلوقتى تساوى الدنيا كلها

- ولومعى فلوس أدفعها كلها علشان أعرف .

شريف : أنا ماكنتش عارف إن حياتى غالية للدرجة دى .

الشاعر ، فى سخريه وتحدى : حياتك تستاهل أكثر من عشوه كباب من واحد معهوش فلوس يأكلك فول .

ابتسم شريف واستمر فى مضغ الطعام ، ونهض أحمد متحدياً . أصابه الإصرار على أن يثبت له أن العواطف مازالت تنبض فى هذا الزمن . سار نحو الجرسون وسأله بصوت خافت :

الشاعر : بقولك إيه يا أخينا . .

الجرسون : أمرك ياسعادة الباشا .

الشاعر : يا باشا إيه ؟ لا . . أنا مش باشا ولا حاجة أنا موظف غلبان .

الجرسون ، تغيرت لهجته إلى الحدة وفى حزم شديد : خير إن شاء الله !

الشاعر : الموضوع ومافيه . . أنا بعد ماكلت اكتشفت إنى معيش فلوس .

الجرسون ، فى صوت عال : نعم يا اخويا ؟ ! طب تعالى كلم المعلم .

يأخذه إلى صاحب المطعم الجالس على الخزينة . . وشريف يراقب الموقف وهو يبتسم :

ظهر الغضب على وجه المعلم الذى نادى بعض الرجال وحدثت ضوضاء بالمطعم واستمع الزبائن لحديثهم ، وتركوا طعامهم وأخذوا ينظرون إليهم وكأنهم وجدوا تسلية جديدة ، والشاعر فى صوت عال .

الشاعر : فين الرحمة . . فين الإنسانية ؟

المعلم : الإنسانية دى ياروح امك تروح تاكل بيها فول وطعمية مش كباب .

وعندما بدأ الرجال يتوجهون نحو الشاعر أدرك شريف أنه لابد وأن يحزم الأمر - ولكن سبقه بلحظات قليلة أحد الزبائن.. نهض من على كرسيه وتوجه نحوهم وهو يقول بصوت عال.

الزبون: بس أنت وهو - ناس معندكوش رحمة ولا ضمير. شوف حسابه كام وأنا هدفع.

لم يصدق الشاعر نفسه من الفرحة.. وتوجه على الفور قائلاً وهو يعانقه ويقبله.

الشاعر: متشكر... متشكر يا أستاذ.

أصيب شريف بخيبة الأمل وظهرت علامات الهزيمة على وجهه، وتوجه إلى الخزينة ليدفع الحساب أوقفه الشاعر عن عمل ذلك وترك الزبون يدفع حسابه ثم قال له.

الشاعر: متشكر يا أستاذ.. إنت الحياة. من غيرك الدنيا تبقى غابة كبيرة.

(٢١)

أيقن شريف أنه لابد وأن يعترف بهزيمته.. فهو يدرك أن الاعتراف بالخطايا لا يمحو قدرة وقوة الرجال. أخذ الشاعر يتمعن فيه.. الابتسامة على وجهه وقد شعر بكرامته، وكبرياؤه عادت إليه.. ولكن بداخله كان مازال يشعر بالخجل والأسى على نفسه.

وقف الاثنان أمام محل الكباب. وبادر شريف قائلاً وهو يمد إليه يده:

شريف: أهنيك.. النهارده بس علمتني درس كنت نسيته!!

الشاعر، وهو يصافحه: يا شريف أنت يظهر الحياة علمتك كتير لكن نسيت أن الانسان مهما كبر واتعلم لسه عايز يتعلم.

شريف: دلوقتي أقدر أحكى لك حكايتي.

الشاعر: مش مهم.. أنت كمان علمتني درس مش ممكن أنساه.

حكايتك بقت بالنسبة لي مش مهمة.. لأن النهاردة بس حكايتي ابتدت.

ضغط الشاعر على يده.. وهو يودعه قائلاً :

أنا سعيد أني قابلتك.

شريف : وأنا كمان .

الشاعر: مع السلامة - خللي بالك من نفسك ياشريف.

رحل من أمامه وأخذ يسير بخطوات ثابتة - شريف يراقبه. أدرك تمامًا أن ظنونه كانت على خطأ، فهو ليس رجلاً من أعوان السلطة. شعر للحظات قليله أنه خسر صديقًا، صديقًا قد يكون رجلاً حقيقيًا وقت الشدة. أخذ ينظر إليه وهو يسير بسرعة وكان ينتظر منه أن يلتفت ويلوح بيده.. قال لنفسه: لو التفت إلى الخلف وألح بالوداع سوف يكون صديقًا عزيزًا. ولم تمر لحظات إلا ورأى الشاعر يتوقف وينظر خلفه ثم يبتسم ويرفع يده إلى أعلى ويشير بالوداع فابتسم وحياه بنفس الطريقة وعلم أنه كسب صديقًا. قال الشاعر بصوت عال ودوى صداه بالمكان.

الشاعر: مسير الحي يتلاقى.

شعر بارتياح شديد وانتابه يقين شديد أنه سوف يتقابل معه مرة أخرى وظروف أخرى. تحسس جيب الجاكيت فأدرك أنه لايملك مسدسه.

(٢٢)

كان الليل قد بدأ بالهبوط عندما وصل شريف مهران إلى حي المعادى .. شعر بالضعف لعدم امتلاك مسدسه. كان يستطيع أن يذهب إلى دكتور عزيز ويسأله عن مسدس، ولكنه وجدها فرصة طيبه لزيارة صديقه القديم والأب الروحي زاهر بك وزوجته الملاك الطاهر مفيدة التي يكن لها حبًا كبيرًا واحترامًا شديدًا .. أراد أن يراهما قبل فوات

الأوان. الآن يعلم مصيره - لقد مات الدهشان، والبحث عنه فى كل مكان قد لا يعطيه فرصة أخرى لرؤيتهما. وصل أمام باب القيلا الفاخرة. تعجب من أمر الأصدقاء الأثرياء الذين يعيشون فى بذخ شديد وهم يعتنقون مبادئ الشيوعية. ولكنه لم ينس فضلهم عليه. وحبهم الشديد له وهو الذى يكن لهم كثيراً من الاحترام والحب.

فتح الباب الحديدى، واخترق الحديقة الأمامية، ثم صعد فى سلالم ليست بكثيرة، وأخذ يدق جرس الباب عدة مرات - ولم يجب أحد. لم يجد سوى الانتظار.. اختبأ بين أشجار الحديقة. رقد على الأرض الخضراء بالظلام الدامس، وأخذت الخواطر تدور برأسه. كان جسده مرهقًا للغاية.. غفلت عينه دون وعى. شعر بنفسه بين الحالم واليقظان - دارت الهواجس بخاطره تتعلق بضجة كبرى حول مقتل الدهشان، وأمر الضابط الذى تركه يهرب، ومسدسه ونجاته. اختلطت الهواجس والأفكار معًا، ولم يخرجه من ذلك سوى سماع صوت فتح الباب الحديدى. ها هو ذا عضو مجلس الشعب زاهر بك قد وصل. نهض من مكانه بهدوء شديد.

أراد أن يفاجأ صديقه، وبنفس الوقت يختبر قدرة الخوف لرجل شيوعى يأتيه الموت من الخلف.

أبصره وهو يصعد فى السلالم.. تسلل خلفه بخفة شديدة، ثم اقترب منه وهو يضع كف يده على هيئة مسدس. وضغط بأصابعه على ظهره قائلاً فى حدة:

شريف: ارفع يدك لفوق يا زاهر.

لم يظهر الرجل أى شعور سوى التوقف عن السير - وعلى الفور أدرك الصوت فصاح قائلاً :

زاهر: شريف مهران. ثم التفت نحوه.

شريف: بخ - فى حركة بهلوانية - مفيش مسدس. وهو يبتسم.

زاهر، يواصل السير على السلالم قائلاً : وطبعًا عايزنى أجبلك مسدس؟!

شريف، وهو يسير بجواره: يعجبنى فيك أنك بتفهمنى بسرعة.

زاهر: إحنا مش اتفقنا إن كل واحد فى طريقه!

شريف: إحنا عمرنا ما اتفقناعلى أى حاجة يا زاهر.

يصل إلى باب القيلا ويدخل وشريف خلفه مستطرداً:

الحاجة الوحيدة اللى اتفقنا عليها لما ضمتنى للحزب معكم فى فرنسا.. كنت ساعتها عيل صغير ومش فاهم حاجة.

يدخل الاثنان إلى ردهة القيلا - وشريف ينظر إلى أثاث القيلا الفخم.

زاهر: ودلوقتى أنت فاهم.

شريف، وهو مازال ينظر إلى الأثاث الفخم:

فاهم - فاهم إن مبادئ الشيوعية عندك اتغيرت وبقيت رأسمالى - وعضو مجلس الشعب.

زاهر: أنت الوحيد اللى عارف أنا تعبت أد إيه فى حياتى .. وعمرى لاسرقت ولا نهبت.

شريف: ومبادئ زمان.. الغنى يدى الفقير.

زاهر : مشّى النظام وأنا أول واحد مستعد أتنازل عن كل أموالى.

شريف: يعنى انت مغيرتش مبادئك؟

زاهر: إطلاقًا .

شريف: فاكر زمان يازاهر لما قولتك الشيوعية أحسن نظام على الورق بس لكن مينفعش عمليًا - وإن الرأسمالية أسوأ نظام فى العالم لكن مفيش نظام غيره ينفع.

زاهر : كل واحد حر فى رإيه، وأنت سيبت الحزب بمحض إرادتك، ومحدش أجبرك أنك تفضل معنا؟!

شريف : على أى حال . . سيبك من الكلام ده كله - أنا عايز مسدس .

زاهر : حد قالك إنى تاجر سلاح ولا مجرم!

شريف : خدمة . . ما أنا ياما عملت لك خدمات .

زاهر : اسمع ياشريف أنت عارف كويس قوى أنى مش مقتنع باللى إنت بتعمله ده . . وبصراحة كده معنديش استعداد أساعدك - صداقتنا أصبحت محض شبهات .

شريف ، بمرارة شديده وسخرية : عظيم . . عظيم . . شبهات !!!

خايف على عضوية مجلس الشعب إللى ضحكوا عليك وادوهالك علشان تسكت .

زاهر : أنا مش ساكت - احنا طريقنا مختلف . وبصوت عال .

أنت فاكر أنت وعزيز بتاعك ده بمسدس كحيان هتقدروا تغيروا نظام - غلط - غلط - مش بالدم .

شريف : أمال بالكلام - ماطول عمرك بتتكلم . . حد سمع ؟ !

زاهر : على الأقل بتكلم - ومسير حد يسمع .

كانت مفيدة ترقد بغرفة نومها بالطابق العلوى . . وعندما سمعت صوتهما تغلبت على المرض ونهضت من على سريرها ووضعت الروب على قميص نومها وسارت ببطء شديد خارج الغرفة ، حتى وصلت إلى أعلى السلم وأبصرتهما أسفله . لم تجد سوى أن تقول بصوت عال ونبرة حزينة .

مفيدة : كلام . . كلام . . مفيش فعل . الشيخ زيدان كابوس ، وشريف مهران محدش عارف إن كان كابوس ولا شمعة بتتحرق فى دير .

لم يصدق شريف عينه عندما أبصرها . . بدا كالطفل الصغير البرىء الذى وجد الثدى الحنون . بدا المرض عليها واضحًا . . وعلى الرغم من أنها تكبره . . فقط عشر سنوات ، لكنها بدت أكبر بكثير لكنها مازالت تتمتع بجمالها الخمرى الخاص . بالماضى كانت مفعمة حيوية والابتسامة لا تفارق شفتيها . والحب والعطف والحنان تعطى لكل من

يريد.. ولكن الحب الحقيقى لزاهر هو الوحيد صاحب المكانه الخاصة. جرت العادة عندما يتلاقى معها يشدو بأغنية فرنسية لايدث بياف - أخذ الاثنان يشدوان بمقطع منها وشريف يقترب منها وهى تنزل على السلالم مستندة على السلم حتى وقفت بالمنتصف فصعد شريف بسرعة وعانقها. ثم جلست على السلم فوضع رأسه على صدرها وأعرب زاهر عن نفوره الشديد قائلا:

زاهر: ما كانش لازم تنزلى من سريرك يامفيدة.

مفيدة: زهقت يازاهر من رقدة السرير، وكمان مش ممكن شريف يكون هنا وما أشفهوش.

شريف يرفع رأسه من على صدرها فتدفن رأسه بيدها مرة أخرى بين ثدييها قائلة.

مفيدة: قريب قوى ياشريف الصدر الحنين مش هتلاقيه.. السرطان بياكل فيه.

يفزع من هول الخبر ويعانقها بشدة - ويكتم ذرف دموعه. وزاهر يكتم مشاعره.

ينهض الأثنان من على السلم وتستند على شريف وهى تهبط فى السلالم.

مفيدة: نفذ يازاهر اللى شريف عايزه - شريف طفلنا اللى ربنا حرمنا منه.

زاهر: حاضر ياستى - بس ريحى نفسك انتى لو سمحتى.

يتجه زاهر نحو التليفون ثم يجلس شريف على كنبة الأنتريه - وتذهب مفيدة نحو البار قائلة بلغة فرنسية مبتسمة: نبيذ أحمر.

يهز رأسه بالموافقة. وزاهر على بعد وهو يرفع سماعة التليفون موجهًا حديثه لها.

زاهر: مفيش داعى للشرب يامفيدة.

مفيدة : كاس واحد بس يازاهر - بمناسبة وجود شريف عندنا .

ينفر من سماع القول - وتصب مفيدة كأسين ، وتذهب وتعطى كأساً لشريف وتجلس بجواره.

مفيدة : في صحتك ياشريف .

شريف : في صحتك يامفيدة .

مفيدة : بتشوف عزيز ؟

يهز رأسه بالموافقة .

خسارة دكتور جامعة كبير وعظيم زى ده - تنتهى حياته على القهوة .

يعود زاهر ويجلس على مسند الكنبة بجوار مفيدة ويأخذ منها الكاس ويشرب أكثر من نصفها ثم يعطيها مرة أخرى قائلاً لشريف :

زاهر : بعد ساعتين على بار ستلا هتقابل واحد - كلمة السر فرنسا بلد السحر والجمال - هترد عليه وتقول استراليا بلد البقر .

مفيدة ، تضحك ساخرة : ومصر فين في كلمة السر دى ؟؟

زاهر ، في مرارة شديدة : مصر فين ؟؟؟ سؤال جميل ؟؟

مفيدة : فاكرين أيام فرنسا .

زاهر : كنا يد واحدة .

شريف : كنت عيل صغير .

مفيدة : كنت أكبر مننا كلنا ، كنت أجمل واحد فينا ، البنات كانت بتنهبل عليك .

زاهر : كنت فخر لمصر .. بتتكلم مع الفرنسيين وكأنك واحد منهم - ولما كنت بتتكلم عن مصر كنت كأنك بتتكلم عن نفسك .

شريف : ما انساش يامفيدة أنتى اللى قلت لى : الفرنسيون والإنجليز بيكرهوا بعض . استغليت النقطة دى وحطيتهم في جيبى .

زاهر : مش فاكر أى حاجة أنا قلتها لك ؟؟

شريف : فاكر يازاهر .. فاكر حاجات كتيرة- أنت اللى قلت لى

خللى بالك منهم كلهم مفيش حد منهم بيحب لنا الخير.. وماتتعاملش معهم بالعاطفة.. انس العاطفة - دى ناس بتضحك فى وشك وتتدعى الإنسانية وبتطعنك فى ظهرك.

شعوب متكبرة - مغرورة - عايزين دايمًا يشوفونا مذلولين ومحتاجين لهم.

زاهر: فاكر إيه كمان؟

شريف، بمرارة شديدة غير راض: فاكر يازاهر لما كنت بتعطف عليّ وبتساعدني في دراستي ومفيدة تأكلني وتشربني - فاكر مش هو ده اللى أنت عايز تسمعه!

زاهر: أنا مش قصدى كده خالص.

شريف: انت دايمًا محسسني إنك صاحب فضل عليّ - والحقيقة أنا سبب العز اللى انت فيه دلوقتي.

زاهر: في حدة شديدة وصوت عال: لا.

شريف: أيوه - أنا صاحب الفضل عليك يازاهر - لولا أنا ماكنتش بقيت عضو في مجلس الشعب.

فاكر يازاهر المية ألف جنيه اللى خدتهم منك - وحطيت من معي ووزعتهم على الفقرا وانت افتكرت إني نصبت عليك علشان أغراضي الشخصية. واكتشفت بعدين إني وزعتهم على أهل الدايرة علشان ينتخبوك، ولما نجحت في الانتخابات قعدت تبوس وتحضن فيّ - وتقول لولاك ياشريف مكانش أول خطوة من الحلم تتحقق.

زاهر: وأنا مقصرتش معك فى حاجة.

شريف: لا.. قصرت يا زاهر - صداقتنا بقت محض شبهة - موجهًا كلامه لمفيدة: بقيت محض شبهة يامفيدة.

زاهر: أنا قلت لك أنا مش مقتنع بالدم - التغيير مش بالدم.

لازم تفوق لنفسك - أنت عقلية كبيرة خسارة مصر تخسرها.

شريف، فى صوت عال وقلبه يحترق: بتتكلم عن الخسارة دلوقتى - وانت كسبت إيه يازاهر؟! ڤيلا وعربية وفلوس فى البنك.. وتتجرق البلد على اللى فيها.. تموت الناس من الجوع والفقر والجهل.

انت ألعن من الإنجليز والفرنسيين يازاهر.

تنهض مفيدة من مكانها والغضب على وجهها.

مفيدة: كفاية- كفاية - أنا زهقت منكوا انتو الاتنين - بتكرهوا بعض ليه؟! هدفكوا واحد.. ياتتحدوا ياكل واحد فى طريقه.

شريف: الوقت فات يامفيدة.

زاهر: الوقت مافتش ياشريف - أنا ممكن أساعدك ونبدأ من جديد.

شريف: ساعد نفسك يازاهر انا اخترت طريقى.

الحاجة الوحيدة اللى عايزها منك: تخللى بالك من مفيدة دى - الملاك اللى نزل علينا من السما - نزل لنا فى زمن غير زمنه.

مفيدة تذرف الدموع وتعانقه بشدة قائلة.

مفيدة: مسكين ياشريف.. بتتعذب ومفيش حد دارى بيك.

بلاش المسدس.. بلاش تحضن الموت زى ماتكون بتحضن عروستك ليلة دخلتها.

زاهر: احنا كلنا بنحبك ياشريف.. بالرغم من الاختلافات.

شريف: أنا قررت أموت راجل.. وراضى عن نفسى.

شريف يجهز نفسه للرحيل. تضع مفيدة يديها فى جيب جاكيت زاهر وتخرج محفظته وتخرج جميع النقود بها وتضعها فى جيب جاكيت شريف الذى يعترض، ولكنها تصر. يودعهم من على الباب.

زاهر: خللى بالك من نفسك.. مع السلامة.

مفيدة: خايفه تكون آخر مرة أشوفك فيها.

شريف: متنسوش الورد الأبيض ورد الروزيس على قبرى.

قالها وهو مبتسم - ثم سار فى طريقه.

تلك الليلة أصيبت سالمة بالقلق ولم تستطع أن يغفل لها جفن. أخذت تتقلب يميناً وشمالاً على سريرها. تمنت أن يدق بابها شريف مهران، هو الذى أدخل البهجة عليها، وأسعدها بوجود حسن. هو الذى لا تعرف عنه الكثير ولكنها كانت على يقين تام بأنه طيب القلب وبأنه الرجل المناسب لها. كانت تخشى فارق السن، ولكنها كانت تعود وتقول لنفسها هذه الأشياء ليست بالسن. كانت تثق تماماً بجمالها، وتود أن يكون هو الوحيد المالك لهذا الجمال.

سمعت صوتاً بالمطبخ، على الفور أدركت أنه حسن. خرجت بسرعة من غرفة نومها وذهبت إلى المطبخ وجدته يشرب كوباً من الماء. سألته.

سالمة: أنت لسه صاحى يا حسن.

حسن: مش جايللى نوم.

سالمة: مالك ياحبيبى ؟

حسن: قلقان على شريف - هو ماجاش ليه !؟

سالمة: ومين سمعك - تعالى نام معى ياحبيبى.

أخذته إلى غرفة نومها - ورقد بجوارها.

سالمة: ماتقلقش على شريف، ده راجل مايتخافش عليه - راجل مفيش زيه.. كفايه إنه جابلك هنا - والمصحف الشريف من ساعة مادخلت البيت ده والدنيا بقى لها طعم تانى.

حسن: وأنا كمان من ساعة ما بعدت عن المحطة حاسس إنى بقالى أهل وناس تسأل علىّ.

سالمة: بس لو ربنا يهديه ويبطل عصبية ويعيش معنا.

تنظر إليه مستفسره: قوللى بقى انت عرفته إزاى ؟؟

حسن: ما أنا قولتلك الحكاية دى ميت مرة.

سالمة: معلش احكى لى كمان مرة.

سمعوا طرقات الباب، وعلى الفور ظنا أنه شريف، هرع الاثنان نحو الباب. وفتحت سالمة.. فوجدت أحمد الشاعر.. لم تصدق نفسها. بدا والكآبة على وجهه.

أحمد: ازيك ياسالمة.

سالمة: أحمد - أهلاً وسهلاً.. مالك يا اخويا؟

أحمد: الدنيا ضاقت بيّ.. فكرت فيكى.

سالمة، وهي تفسح له المكان: اتفضل يا اخويا اتفضل - أهلاً وسهلاً.

حسن يستغرب - وسالمة تقول له:

سالمة: ده أحمد الشاعر قريب المرحوم جوزى.

ثم موجهة كلامها لأحمد: ده حسن ابني.

دخل إلى المنزل وجلس على الكنبة وهي بجواره وهو يستغرب أمر الطفل.

سالمة: خير إن شا الله إيه اللى فكرك بينا؟

أحمد: صاحب البيت طردني - مالقيتش مكان أروحه.. فكرت فيكى.. أنا عارف إنك عايشة لوحدك.

سالمة، وهي تنظر لحسن: مابقتش لوحدى - حسن ابني.

أحمد: إنتي اجوزتي وخلفتي ومحدش يعرف!

سالمة: دى حكاية يطول شرحها.. أنا هاروح أعملك الشاى وأرجع وتحكى لى إنت الأول عن كل حاجة.

شربا الشاى سويًّا. وروى لها أحمد عن كل أخباره وروت هي الأخرى عن أخبارها وتحدثوا عن شريف مهران دون ذكر اسمه. أصابها إحساس داخلي بأن تسأله عن اسم الشخص الذى تقابل معه اليوم قال:

أحمد الشاعر: اسمه شريف - شريف مهران.

كان هذا كفيلاً بأن يجعل الإحساس بداخلها صادقًا. وشعرت بالأمن وبأنه مازال بخير. ابتسمت ولم تعرب له عن سرها.

وصل إلى البار في الموعد المحدد. أخذ يبحث في وجوه الناس عن بعض الرجال.. عن عصبة يقفون في الأزمات كالفوارس الشجعان - وإذا تكلم اللسان سمعت الأذن ميزان المقال. تساءل مع نفسه أين الرجال في هذه المدينة العاهرة؟؟ الكل سكارى بالخمر أو بلسان السلطان.

انقبض قلبه وارتفعت درجة حرارته عندما أبصر أحلام بين ثلاثة رجال.. تبادلا النظرات، وعلم أنه الحب. شعر بالضعف - ليس فقط لعدم وجود مسدسه ولكن لوجودها - وكأن الحب يسحب قوته وقدرته علي تحقيق هدفه الحقيقي. سار إلى البار وجلس وأخذ كأسًا وتجاهل الجميع. غاص في أعماق فكره الخاص، ولم يخرجه منه سوى سماع صوت أحلام تضحك بصوت عال وكأنها تحاول أن تجذب انتباهه - فلينتظر الرجال حتى يأتي السلاح ويخطف أحلام منهم. مرت ساعة على الوقت المحدد ولم يأت أحد.. لم يفصح أحد بكلمة السر - وكأن الأمر خدعة. لم يجعل للشك محلاً في قلبه تجاه صديق العمر زاهر بك، - على الرغم من الجدال المستمر بينهم مازالت الثقة بينهم قوية.

شعر بالشمل من كثرة الخمر. لم يرض عن نفسه وضعفه وضعف البشر في هذا البلد. خشي من منتهى أليم. لم يفقد الثقة بعد بنوايا أصدقائه - أصدقائه الذى اختارهم بمحض إرادته.. مفيدة المرأة صاحبة القلب الطيب التي تحمل على عاتقها كل أشكال الابتزاز والفوضى في هذا المجتمع القذر.

دخلت امرأة غجرية ذات شعر أحمر منكوش ووجه أحمر مستدير تبدو أجنبية في منتصف الأربعينيات. توجهت نحو البار وجلست بجواره لم تبال بالآخرين. حاول البعض معاكستها ولكنها تجاهلت الجميع وكأنها آتية في مهمه خاصة. طلبت كوبًا من الماء وأبصرته وهو

فى شدة سكره. شعرت أحلام بغيرة شديدة بوجود المرأة وجلوسها بجوار شريف. هكذا النساء.. لقد جعل الله الغيرة فى قلوبهن من أهل جنسهن - المرأة هكذا تنجذب نحو رجل تنجذب إليه امرأة أخرى. حتى ولو كانت هى تملك عشرة من الرجال فى الوقت نفسه وكأن حبهن للرجال يأتى من غيرتهن من النساء أنفسهن.

قالت له بلهجة إنجليزية يصعب فهمها.

المرأة: أنت حزين. أدرك على الفور من لهجتها الإنجليزية البسيطة أنها امرأة يوغسلافية هاربة من حرب البلقان.

شريف، فى قمة سكره: أبحث عن الرجال فى عالم بلا رجال.

المرأة: المكان ليس مكانك - والزمان ليس زمانك. اذهب والعب لعبتك مع نفسك.

ضحكت أحلام ضحكة عالية مصطنعة لتجذبه نحوها مرة أخرى. ولكنه لم يبال. فقط ارتعد من كلام المرأة وشعر أنها دجالة فسأل.

شريف: من أنت؟

المرأة: لاتسأل.. لقد حضرت هنا من أجلك يا أمير المدينة.

شريف: أنت مجنونة.

المرأة: قل ما تشاء.. أنا هنا فى مهمة. مهمتى هى أن أقول لك المكان ليس مكانك والزمان ليس زمانك. اذهب والعب لعبتك لتعود إلى أصلك يا أمير الفراعنة. وحذار أن تقع بالحب.

كان ينصت إليه ابآذان مصغية. ولكنه حين ذلك لم يدرك هل هذه هى هلوسة الخمر أم هلوسة النساء الدجالات؟ أراد أن يختبر وجوده بالحياة هل هو فعلاً حى أم ميت، بلا شعور سألها.

شريف: كيف يدرك الإنسان إذا كان عاقلاً أو مجنوناً ؟؟

المرأة: المجنون يظن أنه عاقل يا أمير المدينة،. وأنت خير من يعلم ذلك. طلب كأساً أخرى من الجرسون ودقات قلبه لم تتوقف. شعر بالخطر

- أين سلاحه؟؟ والخوف سيطر على جميع أعضاء جسده. التفت إليها فلم يجدها بجواره.. اختفت من المكان.. اختفت لم يعد لها أثر - وكأنها حضرت بفانوس علاء الدين ورحلت به. لم يصدق نفسه.. تساءل مع الجرسون ليتأكد من عدم جنونه.

الجرسون: دى وليه مجنونة - الحرب كلت دماغها.

الحرب والجنون - لعن الله الحرب التى تخرب العقول والديار وتجعل الناس تهجر موطنها .أدرك أن زاهر بك ضحك عليه وكان من الأولى أن يسأل عزيز عن مسدس وليس زاهر بك. تذكر كلام العرافة: المجنون يظن نفسه عاقلاً .. نهض من على كرسيه بغضب شديد وهو يحمل زجاجة الخمر بيديه. صرخ بأعلى صوته قائلاً مترنحًا:

شريف: يبقى أنا عاقل في زمن مجنون - ثم ألقى بالزجاجة على الأرض بكل قوة فتحطمت إلى قطع صغيرة. هب الجرسون على الفور نحوه قائلاً.

الجرسون: إنت بتعمل إيه يا مجنون؟؟ اطلع بره.

دفعه شريف بكل قوته وطرحه على الأرض فالتفت جميع من بالبار نحوه وضحكوا، ثم قال بصوته العال: ضحكت عليّ يازاهر - ضحكت على شريف مهران.

أنا شريف مهران - والدنيا متساويش غيرى.. قومي معى يا أحلام.

وهنا أدرك الرجال الثلاثة أنهم فى مأزق والثامل يحاول أن يخطف وليمتهم. نهض أحدهم من على المنضدة وقال.

الرجل: روح لحالك يا أخينا.

دفعه شريف بكل قوته ولم تمر دقائق معدودة وحدثت مشاجرة كبيرة طرحوه أرضًا ضربًا - وألقى به خارج البار على الأرض. حاول أن ينهض من على الأرض والدم ينزف من أنفه وفمه، وأحلام غير سعيدة بذلك - قال بصوت خافت.

شريف: جبانات.. كلاب - هتعيشوا كلاب وتموتوا كلاب.

جو غرفة النوم الحديثة يدعو لعمل شيء ما - أى شيء - عمل رومانسي أو حديث رومانسي.. رائحة البخور الهندية تعطر المكان، والضوء الخافت يجعل المكان أكثر سحراً .. والفراش المريح.. ملت مفيدة الرقود به. تنظر بعين حزينة إلى سقف الحجرة شاردة فى عالمها الخاص.. المرض يزحف على جسدها الجميل يقتل الابتسامة الجميلة التي طالما اشتهرت بها وكانت لاتفارق شفتيها. زاهر يرقد بجوارها متظاهراً بقراءة كتاب بلغة أجنبية. كان بداخله شعور آجلاً أو عاجلاً سوف يطرح عليه سؤالاً والمطلوب منه الإجابة، كان يخشى تلك اللحظة: لحظة الوقوع فى مأزق مع مفيدة التى يحبها بجنون شديد. تعرفه جيداً .. تعرفه أكثر من نفسه، تعرف متى يريد أن يعطس أو يسعل! كان يخشى مواجهتها بالحقيقة، كان يدرك بداخله أنه فعل الصواب، وفقط يخشى من غضبها المؤقت، ولكنها عندما تدرك نواياه الطيبة سوف تغفر له. خرج الصوت من فمها ببطء شديد وبلغة فرنسية قائلة:

مفيدة: أخشى أن تكون هذه آخر مرة أرى شريف!!

زاهر وهو يعدل نظارته الطبية: لا تقلقى عليه (ثم تساءل) هل تعتقدين أننى كنت قاسياً عليه؟

مفيدة: شريف ذكى - لا يأخذ كلامك مأخذ الجد.

زاهر: كنت أود أن يسمع كلامى ويحقن الدم.

مفيدة: الثورة الفرنسية قامت بالدم - وشاجيفار أنت تطلق عليه شاجيفارا.

زاهر: هناك ثورات أخرى بيضاء قامت دون دماء - لماذا الدم؟! أين الحب؟

أبصرته واقتربت منه -ثم غيرت حديثها باللغة العربية قائلة متسائلة.

مفيدة: بتحبنى يا زاهر؟
ألقى الكتاب جانبًا - ثم بدء ملامستها قائلاً:
زاهر: وده سؤال تسأليه يامفيدة - إنتى كل حاجة لى فى حياتى.
مفيدة: خايفة يازاهر - خايفه لما يشيلوا صدرى حبك يتغير.
زاهر: انتى بتقولى إيه؟؟
مفيدة: احضنى يازاهر.. عايزاك لم يشيلوا صدرى يعانقها بشدة تحسسنى إنى لسه جميلة وتحبنى أكتر من الأول.
زاهر: رلكس.
مفيدة: رلكس ازاى بس؟؟ (وهى تذرف بعض الدموع) السرطان.. وشريف، كله فى وقت واحد.
زاهر: شريف من ساعة ما اختار طريقه واحنا عارفين إنه ممكن يموت فى أى لحظة. كون ان احنا شوفناه «بنجو» وهانشوفه تانى ده يسبع ترواح.
اعتدلت فى مكانها وأخذت تنظر إليه فى حدة ثم سألته بجدية شديدة.
مفيدة: اقلع النظارة يا زاهر.
هنا أدرك وفطن للسؤال القادم - ارتبك بخلع نظارته. لم يكذب فى حياته عليها. حاول أن يدارى عينيه - وهو يجهز نفسه ماذا سوف يقول.
مفيدة: بص فى عينى يازاهر؟؟ كررت سؤاله مرة أخرى ثم نظر إلى عينها وعلمت دون أن تسأله - فهى تعرفه أكثر من نفسه - ولكنها ودت أن تتأكد من شعورها فسألته بجدية.
مفيدة: أنت ساعدته فى الطلب اللى كان جاى علشانه؟!
زاهر: أساعده ازاى بس؟ أساعده إنه يموت! أنا بحبه أكتر منك.
مفيدة: وهى تشعر بخيبة الأمل وتضرب بكف يديها على جبينها قائلة: أه.
زاهر: أنا كمان ماعرفش بيجيبوا الحاجات دى منين؟؟

مفيدة : دى أول مرة تخيب ظنه.

زاهر : نخيب ظنه أحسن مايموت ومنشوفوش تانى.

مفيدة ياحبيبتى مش عايزك تفكرى فى الموضوع ده.. صدقينى شريف نفسه عارف كويس قوى أني انا مليش في المواضيع دى .

مفيدة : كان مفروض تقوله مش تتعامل معاه كطفل.

زاهر : قلت له لكن هو مش عايز يسمع.

(٢٦)

قضى ليلته بالمقابر بين سكون الليل والأموات ولم يزعجه سوى أصوات الغربان كواك.. كواك.. ونباح الكلاب. كان يتألم كثيراً من آثار المعركة. حاول أن يغفل جفنه ولكنه فشل فصوت الغربان.. كواك.. كواك ونباح الكلاب ظل طوال الليل. كانت هذه الأصوات تزعجه للغاية.. حاول أن يسد أذنيه ولكن باءت محاولته بالفشل فالأصوات طغت على أذنيه وبعد سماع صوت أذان الفجر.. كان جسده مرهقًا تمامًا. رقد فوق مقبرة ولبى نداء الجسد .

استيقظ في العاشرة صباحًا وتوجه إلى المقهى.. فى طريقه كان يعرج بقدمه، والورم الأزرق على عينه – وعندما وصل إلى المقهى كانت منضدة الدكتور عزيز فارغة. ذهب وجلس لينتظره وجسده مازال مرهقًا يحتاج للراحة. لم يعط للقهوجي فرصة التساؤل والسخرية – شخط به بصوت عال وغضب شديد طالبًا قهوته. ا نتفض الآخر رعبًا وذهب ليلبى طلبه، وعندما عاد بفنجان القهوة وجده نائمًا على المنضدة. وضعه وذهب لحاله.

لم تمر نصف ساعة إلا وقدمت خطوات عزيز. أبصره وهونائم، ثم حضر القهوجي. وبسخرية شديدة قال :

القهوجي : صاحبك خد تعسيلة عقبال ماتيجى ؟!!

دكتور عزيز، فى حزم شديد : امشى غورهات جردل ميه ياجردل.
القهوجى: طب ما تشخطش قوى كده لا الحيطه تقع.
يرحل من أمامه ، ثم يخرج عزيز مسدساً من جيب الجاكيت ويضعه فى جيب جاكيت شريف الذى مازال نائمًا - والقهوة باردة أمامه. ثم حضر القهوجى ومعه جردل صغير مملوء بالماء.
عزيز : ادلقه عليه.
القهوجى : لا.. لحد كده واحنا حبايب - الجردل أهو. يضعه على الأرض وينصرف قائلاً : اعمل اللى أنت عايزه.
عزيز يرفع الجردل من على الأرض ثم يصبه فوق رأس شريف الذى يفيق من نومه مبلل الرأس، قائلاً بصوت عال :
شريف : ياكلاب.
عزيز : صح النوم.
شريف : أنت جيت يا أستاذ.. المسدس....
عزيز، يلقى بالجردل على الأرض ثم يجلس على كرسيه قائلاً : فى جيبك.
يتحسس شريف جيب الجاكيت فيجد مسدسًا - ثم يتساءل
شريف : عرفت ازاى ؟؟
عزيز : مفيدة اتصلت بىّ امبارح بالليل.
شريف : زاهر ضحك علىّ.
عزيز : غلطتك - مش مهم سيبك منه... الدهشان ماماتش.
شريف : بتقول إيه؟!!
عزيز : لحقوه ولاد الكلب فى طيارة خاصة على أوربا.
روى له ما حدث بالأمس - وأخذ الآخر يفكر بالأمر ثم قال :
عزيز : يبقى كده الحكومة دخلت اللعبة.
شريف : قصدك إيه؟!

عزيز : الحكومة بتراقبك وسبوك تهرب عايزين يعرفوا حاجة !!
شريف : تفتكر إيه ؟؟
عزيز : مش عارف بالضبط .
شريف : يبقى نلعب معهم.
عزيز : بلاش تهور . . مش قبل مانخلص على الدهشان وزيدان - مش عايزين الشيخ زيدان يستغل الموقف لصالحه .
شريف : الشيخ زيدان هو الوحيد اللى يساعدنا دلوقتي .
عزيز : يساعدنا !! دا أول واحد هيقتلك علشان يعرف طريق الفلوس ويشغلها للإرهابيين بتوعه - الشيخ زيدان ده كابوس لو الناس مافاقتش منه قول على البلد دى يارحمان يارحيم .
شريف : كله إلا الشيخ زيدان !
عزيز : أنت خايف منه ؟!
شريف : لأ - مش حكاية خوف - أنت عارفنى كويس - لسه فيه حاجات كتيرة لازم تتعمل قبل ما أروح للشيخ زيدان علشان دى هتبقى معجزة لو خرجت من عنده حى .
عزيز : صدقنى . . لو خلصت على الشيخ زيدان الجو هيروق لنا .
شريف : أنا عندى فكرة تانية .
عزيز : قول .
شريف : أروح للشيخ زيدان اتكلم معه أى كلام فارغ . . فى الساعة دى الحكومة هيفتكروا إن فيه حاجة - والشيخ زيدان كذلك .
وبكده نلخبط الاثنين مع بعض .
عزيز : فكرة جهنمية - بس الحكومة هتفضل مراقباك .
شريف : خليهم يحمونى شوية .
عزيز : اتفقنا بس خللى بالك من نفسك .
شريف : متخافش - ومتنسانيش . . الورد الأبيض على قبرى .
ابتسم الاثنان ورحل وشريف وهو مازال رأسه مبللاً بالماء .

(٢٧)

تأكد من وجود مسدسه الجديد وطلقاته. عادت الروح بكل قوته إلي الجسد.. وليختبئ الأوغاد كالفئران من جديد. حتى آلام معركة الأمس زالت - على الرغم من أنه مازال يعرج قليلاً بقدمه ولكنه لم يشعر بالألم وكأن المسدس شفي مرضه. كان لابد من الذهاب إلي البار يمحو عار هزيمة الأمس. ما أسوأ أن يترك مكانًا ما فى هذا العالم القذر يشعر به بضعف، ما دام قرر أن يكون الأقوى. عندما وصل إلى البار دفع الباب بكل قوته بقدمه المتألم.. ومن شدة الدفعة خبط الباب بشخص يقف خلفه وهو يحمل صينية وقعت على الأرض وتحطمت بعض الكئوس والزجاجات. دخل ولم يبال بالجميع. ذهب إلى جرسون الأمس - ارتعد من غضبه ونظراته الحادة. أن يعود الضحية بهذا الغضب يعنى المشاكل... وربما إغلاق المحل. هذا ما وضح على وجه الجرسون دون أن يظهر مسدسه، وعندما أشهر له مسدسه وهو يزيح الكئوس والزجاجات على الأرض علم بالمأساة الحقيقية. سأله بصوت عال وهو يصوب المسدس نحوه.

شريف: فين الجماعة بتوع امبارح؟؟

الجرسون، في ارتعاد شديد: دول جماعة من الصعيد مش زباين المحل.. هدى نفسك - ونتفاهم.

شريف: والبنت اللى كانت معهم.

الجرسون: لسه خارجة من الباب ده.. وهو يشير على الباب الخلفى: مع واحد أفندى .

تركه شريف ورحل - كان هذا كفيلاً بأن يتلقى الأوغاد الدرس.. خرج بسرعة ليلحق بأحلام. أبصر الشارع يمينًا وشمالاً. لمحها على بعد أمتار مع شخص آخر.. بسرعة هرع نحوهما وهو يضع المسدس فى جيبه.

وعندما اقترب منهما كانت المفاجأه، فالشخص الذى يصحبها هو نفسه الضابط الذى تركه يهرب.. يالها من مصادفة عجيبة. نادى عليها بصوت عال.. والتفت الاثنان نحوه.

شريف: أحلام.

توقف كمال عن فتح باب سيارته - وسعدت أحلام بوجوده وتوقفت عن الركوب بالسيارة.

شريف: تعالى هنا.

لم يظهر أى خوف أو خضوع للسلطة.. لقد عاش حياته متمرداً وسوف يبقى كذلك، وبالأمس قالت له العرافة المكان ليس مكانك والزمن ليس زمنك. فماذا يخشى الآن؟؟

ضابط تافه يلهث وراء غريزته. كان لابد وأن يستفز غروره وهو فى قمة مفاجأته.

شريف: أحلام دى مش بتاعتك ياحضرة الضابط، أنت كفاية عليك الدبابير اللى على كتفك.

على الرغم من أنه لايرتدى زيه الرسمى، لكنه أصر أن تكون كلماته حادة وذات مغزى لتجعل الآخر يفكر ويستغرب أكثر من جراءته.

على الفور ودون وعى ذهبت أحلام إليه وأخرج شريف مسدسه من جيب الجاكيت حتى لايفكر الآخر فى الأمر مرتين. وهنا أدرك كمال أن الأمر أصبح أكثر تعقيداً.. تساءل.

كمال: أنت جبت المسدس ده منين؟!

شريف: مش شغلك.. كلمة واحدة أو أى حركة هاضغط على الزناد.

ثم موجهاً كلامه إلى أحلام: وقفى تاكسى. وهو يصوب مسدسه إلى كمال قائلاً:

أنا مش عارف إنت تعرفنى ولا لأه.. أنا شريف مهران واللى بينى

وبينك لحد دلوقتي أحلام وبس - لو ما أخدتهاش بالذوق.. هاخدها بالمسدس.

كمال: إنت مش أد اللي انت بتعمله ده ياشريف.

شريف: ما كنتش أعمله.

توقف تاكسي بناء على طلب أحلام وقفزت بالعربة وتركت الباب مفتوحًا لشريف.

كمال لأحلام: ماتسمعيش كلامه يا أحلام.

قفز شريف بالتاكسي ورحلا من أمام كمال الذى بات الغضب واضحًا عليه.. أبصره بالتاكسي وهو يضحك فقال له بصوت عال:

كمال: مش هاسيبك.. مش هتفلت منى.

(٢٨)

خطف النسر الوليمة من فم الأسد وطار يحلق فى السماء بوليمته.. طال اشتياقه لها طويلاً. ساق كمال عربته بغضب شديد وجنون. داس على كل قوانين وقواعد المرور- كان يتساءل مع نفسه كيف يجرؤ مواطن عادى أن يتعدى على رجل سلطة؟؟ وفوزى البنا مازال لايريد أن يقبض عليه..؟ لماذا لا يشهر عن غرضه الحقيقى؟

لماذا يحركه هو نفسه كقطعة شطرنج فى لعبة لم يفهم قوانينها ومبادئها؟

اقتحم غرفة فوزى البنا دون استئذان - وتمالك الآخر أعصابه ولم يعاقبه على سلوكه الهمجى حتى يستشف الأمر.. كان يدرك أن وراء هذا السلوك أخبارًا غيرسعيدة.. فضل أن يسمعه أولاً، ويبرد أعصابه حتى يتحكم بالموقف.

فوزى: خير.

كمال: شريف مهران جاب مسدس تاني.

فوزى : ده أمر طبيعى.
كمال : أنا أعتقد إن احنا لازم نقبض عليه.
فوزى : فين برود الأعصاب - تشرب ليمون؟!
كمال : أنا عايز أشرب من دمه - ده هددنى بالمسدس.
فوزى : يعنى عرف ينرفزك.. وطبعًا عرف أنك بتراقبه!
كمال : ما أعتقدش دى.
فوزى : خلاص، سيبه ياخد وقته - صدقنى يومه قرب.
كمال : أنا مش فاهم حاجة.
فوزى : بلاش تاخد المسألة بصورة شخصية.. عايزك تفكر فى المصلحة العامة.
كمال : أنا شايف إن المصلحة العامة هنا بتقول نقبض عليه.
فوزى : بتهمة إيه؟!
كمال : حمل مسدس بدون ترخيص - محاولة قتل الدهشان - تهديد أمن سالمة.
فوزى : أنا قولتلك قبل كده.. شريف درس القانون كويس - يعنى يقدر يطلع من كل التهم دى زى الشعرة من العجينة.
اسمع ياكمال، أنا عامل حفلة فى البيت عندى بكرة.. تعالى وفرفش شوية - وانس شريف مهران.
لم يرض كمال عما سمع. قرر الرحيل والغضب على وجهه، وعندما وصل إلى الباب سمع فوزى فى حزم يقول:
فوزى : كمال.. المرة الجاية تستأذن قبل ماتدخل.

(٢٩)

جلسا الاثنان بكافيتريا بوسط البلد، أمامهما مشروب البرتقال.. شعرت بارتياح شديد وانشرح صدرها.. لقد مارست الجنس مع رجال

كثير أعطت لهم الجسد وأبقت الروح لنفسها. دقات قلبها لم تتوقف.. رعشة وقشعريرة جسد تصيبها من حين لآخر وهي تتأمل وجهه الوسيم. كانت تعلم أن تلك اللحظات لن تستمر طويلاً، فقررت الاستمتاع بها. التزم الصمت ولم يجد شيئًا يقال. تلخبطت الأفكار في رأسه عندما تذكر العرافة وتحذيرها له من الوقوع في الحب.

انتابه إحساس بالخوف.. الخوف من مغامرة - مغامرة قد تدعو للتجديد - تمامًا مثلما تقابل للمرة الأولى مع زاهر والدهشان وزيدان ودكتور عزيز. ولكن هذه المرة، المغامرة للنفس ودعوة لراحة البال. نعم يقلقه آلام الآخرين - ولكن أليس هو أمير المدينة.. الأمير الذى خاض تجاربه ووصل إلى حافة الهاوية دون خوف.. أليس من حقه أن يعشق ويعيش لنفسه؟

وجد نفسه جالسًا متلخبطًا كطفل صغير تائه في مدينة كبيرة لايدرك سرها ولايعلم إلى أين المصير. أخرجته من فكره وصمته عندما أرادت أن تسمع صوته متسائلة بمزاح.

أحلام: ياترى شجيع السيما ناوى يعمل معى إيه؟؟

شريف: مش عارف - إنتي لخبطيني

أحلام: لو ممعاكش فلوس أو معندكش مكان مش مهم!! أنا عندى مكان.

شريف: لا.. لا.. إنتي فاهمة غلط!

أحلام: فاهمة غلط! طب إنت عايز إيه؟ تحب؟

شريف: مش عارف.. أنا مش عارف عملت ليه كده.. عمرى في حياتي ما اتلخبطت زى دلوقتي.. طول عمرى باختار طريقي بنفسي.. أول مرة أحس أني مجبر.

أحلام: هي إيه الحكاية بالضبط؟؟ حكايتك إيه؟

شريف: حكايتي طويلة - وحياتي على كف عفريت.

أحلام: أنت شكلك تعبان.

شريف: فعلاً أنا تعبان قوى - ونفسى أستريح.

أحلام: وأنت اللى عملته مع الضابط ده هيخليك تشوف راحة؟!!

شريف: سيبك منه. ده نقطة في بحر كبير.

أحلام: إنت عارف - أول مرة أقابل رجل وأحس أني أبقى نفسى معه على طول. أحس إني عايزه أديله كل حاجة؛ جسمى روحى فلوسى لو عايز أى حاجة يطلبها.

شريف: أنا عايزك - بس مش بالطريقة دى.

أحلام: وعايزنى بأى طريقة؟!

شريف: عايز أتجوزك على سنة الله ورسوله.

نزلت الكلمات عليها كالصاعقة. صمتت للحظات لا تدرى ماذا تقول. بداخلها شعرت بسعادة شديدة ولكن صاحبها القلق - ثم قالت للتأكد:

أحلام: أنت عارف أنا بشتغل إيه؟؟

شريف: مش مهم.

أحلام: إنت مجنون!

شريف: أنا عاقل جداً - عايزك فى الحلال.

أحلام: ومش هتندم على الماضى؟!

شريف: الماضى فات وعدى - لكن النهارده لو مافكرناش فى المستقبل وخططنا له كويس هيدوسنا القطر - ومن نعمة ربنا علينا إدانا الذاكرة والنسيان.

احنا لازم نفتكر الأيام الحلوة - وننسى الأيام السودة.

زى مابنفتكر للفراعنة الأهرامات وبننسى لهم العبودية والسخرية.

أحلام: والضابط كمال؟

شريف: ده هايف - لو عملنا حسابه يبقى مش هنعرف نعيش. أنا كمان لى ماضى وحياتى على كف عفريت.. نهرب بعيد نسيبهم

كلهم يتعذبوا كلهم يستاهلوا اللى بيحصلهم. نهرب بعيد نروح سينا أو الواحات ونعيش حياتنا.

أحلام: بوسنى.

شريف، فى استغراب شديد: إيه؟

أحلام: بوسنى. وهى تقترب منه.

شريف: الناس.

أحلام: سيبك منهم.. هازعق واقولهم: أخيراً لقيت الراجل فى بلد الرجالة أغلبهم لبسوا طرح.

ضحك وماكان عليه سوى أن يلبى طلبها. ثم تم طردهم من المحل.

(٣٠)

كانت توضب المنزل.. وأحمد يجلس بالصالة على الكنبة يدندن بعض أشعاره على العود وعندما سمعوا دقات الباب. استغربت سالمة لقد كانت طرقات موسيقية. أخرجت صوتًا ساخراً متسائلة: وده مين ده اللى باله رايق

ابتسم أحمد وظل يدندن على العود، بينما هرعت سالمة نحو الباب وفتحته. لم تصدق نفسها عندما وجدته واقفًا على الباب يبتسم. لم تنتبه لوجود أحلام معه.. كانت سعيدة أن ترى ابتسامته لأول مرة. تلخبطت وخرج الكلام من فمها متقطعًا.

سالمة: كنت عارفها إنك جاى.

سالمة وشريف فى صوت واحد: والله العظيم كان قلبى حاسس.

ثم ضحك الاثنان وأخذ يقدم لها أحلام.

شريف: أحلام.

سالمة: زى القمر.

أحلام: أعرفها.

شريف، في استغراب: إنتي كمان عارفاها.
أحلام: بشترى منها الجرايد بس بقالى فترة مشفتهاش.
سالمة: اتفضلوا – الحق عليه هو اللى خلاّنى أبطل الجرايد.
يدخل الجميع إلى الصالة. ثم يخرج صوت أحمد متحدياً ثم مبتسماً:
أحمد: مش أنت لوحدك اللى تعرف سالمة.
شريف، مستغرباً: أنت!!
أحمد: مش قولتلك مسير الحى يتلاقى!
يتعانق الاثنان، ثم يجلس الجميع بصالة المنزل:
شريف: وأنا اللى كنت فاكر إن سالمة لوحدها وجبت أحلام تسكن معها.
سالمة: حيلك – حيلك. إنت ناوى تسكن البلد كلها هنا.
شريف: وانتى تكرهى؟
سالمة: حبايبك همّ حبايبى.
شريف: أمال فين حسن؟
سالمة: نايم فى أوضته.
شريف: وعامل إيه؟
سالمة: مالى علىّ الدنيا.
قامت سالمة إلى المطبخ وساعدتها أحلام فى عمل الشاى. وعندما انتهى الجميع من شرب الشاى كان الفضول على وجه سالمة واضحاً – تساءلت:
سالمة : أحمد قال إن البوليس بيدور عليك – قرأ النهارده فى الجرايد.
أحمد: الجرايد مقالتش بالضبط مين اللى حاول يقتل الدهشان. لكن قالوا إنهم بيدوروا عليه.
أصابته الدهشة وعلم أن أسراره لابد أن تفشى. لم يخش ذلك ولكنه فقط لايحب الحديث عن نفسه وعمله. يعتقد أنه من يتحدث عن الماضى وبطولاته يعنى أنه أفلس، ولذلك كان يحبذ أن لا يتحدث

عن نفسه. كان يود أن يرضى فضولهم وعندما فاجأته سالمة قائلة:

سالمة: شريف، إنت بقيت واحد مننا، وسرك هو سرنا.. إيه الحكاية بالضبط؟

لم يجد مفرًا، ولكنه وجد نفسه مسترخيًا تمامًا على كرسيه - وشعر لأول مرة بالحديث عن نفسه. فقط أراد أن يفعل ذلك ليختبر وجوده بينهم.. هل هو فعلاً حي أم ميت؟؟

(٣١)

عندما عاد مهران إلى الحي.. كان مشغول البال، ساخطًا على الحياة؛ لقد فقد عمله هذا اليوم وتم طرده، بل لطمه صاحب العمل عدة لطمات على سلاطة لسانه. شعر بالإهانة الشديدة.. وشعر بالخطر على أسرته الفقيرة.. كيف سوف يطعم الأفواه المسئولة منه. كان هذا كفيلاً أن يطير برجًا من أبراج عقله من كثرة التفكير - وعندما عاد وجد الحي فى حالة يرثى لها، أصوات عالية، وخناقات، وأطفال تقذف حجارة ورجال الشناوى بأسلحتهم البيضاء يهرعون هنا وهناك. وعندما أبصره الشناوى لم ينتظر أن يأتى إليه ويستسفر الأمر.. اندفع نحوه بقوة، ولطمه لطمات قويه أوقعته على الأرض وأخذ يقول له: انظر ماذا فعل ابنك الشيطان؟؟ ثم بحرقة شديدة ليكسب عطف أهل الحى ليقفوا بجواره.. لقد حرق طفلك منزلى وجرح بعض رجالى.. سوف تدفع الثمن!! سوف أطردك من منزلك، سوف أجعل حياتك جحيمًا. حاول بعض الرجال الطيبين أن يتدخلوا لينقذوا المسكين من يد الغول، ولكنهم فشلوا. وعندما أبصر شريف أباه بين يد الثور الهائج لم يجد سوى أن يقذف الحجارة ومعه بعض الأطفال من فوق سطوح عالية. وأصيب الشناوى الذى قال بصوت عال وهو يضربه ضربات متتالية: انظر ماذا يفعل طفلك يا ابن العاهرة؟ انظر كيف

يسخر من الرجال؟! ربى ابنك - ربى ابنك يا ابن العاهرة.

لم يجد مهران وسيلة لإيقاف ذلك سوى أن يلبى طلبه قائلاً: هدئ نفسك.. سوف أربيه.. سوف أقتله. لم يجد وسيلة أخرى سوى رضاء الجزار حتى لو كان ضرب طفله الذى لايعرف ما جريمته. المنقذ الوحيد للخلاص من يد الغول هو ضرب الطفل وإعادة تربيته - ضرب الطفل سوف يرضى الكبار. هرع نحوه ونادى عليه.. فزع الطفل وخشى. لقد رأى الجنون والغضب على وجه أبيه.. لم يجد سوى أن يهرع وخلفه أبوه.. يلعنه ويلعن اليوم الذى أنجبه فيه إلى هذه الحياة.

فقد الرجل عقله وهو يهرع خلف ابنه. الهلوسه فى الكلام - وشريف يهرع مرتعبًا. لم ير أباه فى هذه الحالة من قبل. كان يهرع وكأنه يتمسك بحياته لفترة أكثر، وعندما وصلا إلى المقابر المجاورة لهم.. تعب الطفل واستسلم لمصيره. وقع الطفل على الأرض، ومن سوء حظه سقط بجوار مقبرة مفتوحة. وكأنه اختار لنفسه مقبرته. وقف الأب أمامه يلهث والشر يطل من عينه وشعره منكوش فاقداً الوعى. من أجل إطعام طفله أهين وضرب مرتين - والآن فقط يستطيع أن يتخلص من فم يريد الطعام. استسلم الطفل لجنون أبيه. عيون الطفل البريئة كانت سراً تقول: افعل ما تشاء يا أبى، إذا كان هذا يرضيك.. اذبحنى!! اقتلنى! إذا كان الموت سوف يريح عذابك - ويجعلك أكثر سعادة. اقتلنى يا أبى على جريمتى - جريمتى التى ربما يعتبرها بعض الناس جريمة. جريمتى يا أبى - كنت أريد إسعاد الناس بتسجيل هدف جميل، إذا كانت هذه الجريمة تستحق هذا العقاب اقتلنى يا أبى. دفعه بكل قوته إلى المقبرة المفتوحة.. ثم أخذ يردم التراب عليه حيًا والطفل يصرخ. والأب فى حالة هذيان شديدة يقول:

- استريحوا.. لقد رجمت ابنى. استريحوا جميعًا لقد قتلته.

أصبح لليوم واقعة وأناس أرادو أن يكونوا جزءاً منها، وآخرون أرادو

أن يكون شهوداً .. وآخرون سعداء بالمصائب، وآخرون يتحسرون على ما يحدث للحى . هرع بعض الناس للمقابر، محاولين إنقاذ الطفل وآخرون حاولوا أن يستسفروا من الأب أين رجم الطفل. والأب في هذيان شديد بين الضحك والبكاء والشناوى سأله أحد أعوانه أن يتصل بمستشفى الأمراض العقلية. عندما علمت الأم بالحادثة سارت هى الأخرى تلهث بين المقابر كالمجنونة باحثة عن طفلها.. وتعود للأب تسأله أين رجم الطفل؟ أى مقبرة؟؟ والأب ضاحك مهلوس بكلمات غير مفهومة.. دلها قلبها على مقبرة. أخذت تحفر وتحفر حتى سمعت صوته يصرخ من الداخل – أو هكذا ظنت أنه بالداخل، أنقذت الطفل وأخرجته للعالم مرة أخرى.

كان شريف فى تلك اللحظات لايدرى من هو المسئول الحقيقى عن رجمه بالمقبرة.. هل هو الأب الذى فقد عقله؟؟ هل هو الغريب الذى تطفل على الحى وطغى بجبروته؟! هل هم أهل الحى الساكتين للطغيان؟ كانت لحظات وجوده بالمقبرة لحظات كئيبة مظلمة، وجد نفسه حيًّا بين الأموات.. وما أصعب تلك اللحظات لطفل برىء وجد نفسه في ظلام دامس.

(٣٢)

دخل حسن إلى الغرفة بعد أن أفاق من نومه. حيا الجميع وعانقه شريف وقبله.. وجلس حسن بجواره. سأله عن حاله. أجابه بأنه سعيد ويريد فقط منه أن يبقى معهم. كان أحمد الشاعر مازال مستغرباً على روايته – وسالمة حاولت أن تشغل نفسها ببعض الأشياء غير المهمة حتى تخفف من حزن شريف وروايته. أحلام الوحيدة التى شعرت وودت لو تقابلت معه منذ زمن طويل – تساءل الشاعر:

الشاعر: إنت بتعمل كل ده ليه – علشان خاطر مين؟

شريف : مش عارف . يمكن عايز أضمن لسالمة حياة كويسة - وعايز حسن يتعلم أحسن تعليم ويعيش حر ، وعايزك لو اشتغلت موظف ماتاخدش رشوة ، وعايز أحلام الناس متشتريهاش بالفلوس . وعايز وعايز حاجات كتيرة .

سالمة : وانت عايز إيه ؟

شريف : أنا مش عايز حاجة - أنا راضي عن نفسي وسعادة الناس بتخليني سعيد . . أنا عشت زى الملك وزى الصعلوك - فلوس كتير ومفيش فلوس ولا أكل ولا شرب . . اكتشفت من خلال حياتي إن سعادة الناس وقيمتهم في إسعاد الآخرين .

أنا لا ابحث عن مجد ولا شهرة . كل ده عندى مايساويش حاجة .

علمت أنه مرهق وجسده محتاج لبعض الراحة تركتهم بالصالة وذهبت لتطمئن علي غرفة نومها وهو مازال يتحدث . وجدت الغرفة منظمة والفرش نظيفًا . . تأثرت من ذلك وهي مازالت تسمع صوته من الصالة :

العالم كله اتحول إلي أنا . . وأنا ومابعدى الطوفان . كل واحد عامل زى اللي دخل أوضة وقفل على نفسه - وجوّه الأوضة لقى أوضة تانية . دخل وقفل على نفسه وجوّه الثانية لقى ثالثة . كل مايخش على الأوضة يلاقى أوضة يقفل على نفسه . . بعدنا عن بعض قوى .

خرجت من الغرفة وهي تقول بصوت عال :

سالمة : الأوضة جاهزة تعالى علشان تريح .

شريف ، وهو يبتسم : حتى سالمة عايزة تدخلني الأوضة .

ضحك الجميع - وكان جسده بالفعل يحتاج للراحة .

(٣٣)

خرج كمال من مبنى الإدارة غاضبًا . . لم يصدق نفسه . . هو . . . هو واحد من أفضل رجال فوزى البنا . . وينتهي الأمر بأن يتعامل معه

هكذا.. ومن أجل من؟؟

من أجل شريف مهران؟؟ من أجل مجرم؟؟

يدرك جيداً أنه لايطيق أن ينافسه أحد على منصبه. حتى ولو كان هذا الشخص يتميز بالكفاءة عنه.. ولكنه لم يع حتى الآن ما يدور بخاطر فوزى البنا نحو شريف مهران.. لقد حطم شريف مهران كبرياءه.. جرده من كل شيء - وضعه في مكانه الطبيعي. هو الذى حاول مراراً أن يكون بعيداً عن الأمور السياسية. لقد أصبحت الأمور الآن أكثر تعقيداً .. وشريف مواطن متمرد ولابد وأن يدفع الثمن غالياً ... لقد علم من مصادره الخاصة أنه بعد يوم أو يومين سوف يعود الدهشان، وسوف تكون أولى خطواته الانتقام من شريف مهران. لا يريد ذلك أن يحدث قبل أن ينتقم هو لكرامته. لابد وأن يخوض المعركة وحده. يعلم جيداً أن تلك المحاولة سوف تغضب فوزى البنا، ولكنه سوف يبرر بالأسباب والحجج.. ما أسهل ذلك في هذا البلد.. فقط يريد بضع ساعات داخل قسم البوليس. هذا كفيل لشفاء الغليل

- سوف يريه جميع أصناف العذاب.

الويل لشريف مهران.

في اليوم التالي جهز نفسه ورجاله وعربة البوكس للقبض على شريف مهران.

(٣٤)

لم يستيقظ من نومه إلا في الصباح التالي . نسي كل الأحلام التي حلم بها.. لم يتذكر سوى طيف بسيط لمزيج من الهلوسة بين الماضي والحاضر. استيقظ على رائحة الزهور البيضاء تداعب أنفه. كانت أحلام تداعبه، وعندما فتح عينه قالت:

أحلام : نمت كتير قوى.

شريف : الساعة كام

أحلام: عشره الصبح (ثم مستطردة) حلمت بإيه؟؟.

شريف : حلمت بيكي وسالمة. ولكن مش فاكر أى حاجة - أول مرة ماافتكرش الحلم.

أحلام: إنت جايبني هنا ليه؟

شريف : علشان عايزك تبقى معي.

أحلام: طب ما تعمل حاجة. وهي تلامس صدره.

شريف، وهو يزيح يديها بعيداً: احنا هنتجوز الخميس الجاى.

أحلام: وليه مش دلوقتي؟! مادمت أنا عايزاك.

شريف: لسه فيه حاجات كتير لازم تتعمل - وكمان أنا عايزه يبقى فرح بحق وحقيقي. كلنا لازم نفرح.

دخلت عليهم سالمة غير راضية، وطلبت على الفور من أحلام أن تنفرد بشريف وحده.

أبصرها وأدرك أنه لامفر من مواجهة سالمة بالحقيقة - دائماً ما حاول التهرب من هذه اللحظات ولكن الأمر أصبح واقعاً. كان يخشى منذ زمن طويل أن يكون هو ذلك الرجل التى تتصارع عليه النساء.. عاشر نساء كثيرات فى حياته. ولكنه لم يجمع بين امرأتين فى وقت واحد. كان هدفه الحقيقى أن يجمع الآلاف من الرجال حوله. أفضل بكثير من أن يجمع امرأتين لتتصارعا على حبه. خرجت أحلام من الغرفة وتوجهت سالمة نحوه.

سالمة: من ساعة ما دخلت حياتي لخبطتني - اتمنيت شبابي يرجع وتبقي إنت العريس.

شريف: انتي كلك شباب - بس أنا مش أدك.

سالمة: مش بالسن.. بالإحساس.

شريف: مش ده الموضوع - إنتي تستحقى واحد أحسن منى .

سالمة : إنت الرجل الوحيد اللى هتعوضنى سنين العذاب وترجع لى أيام العز .

الرجالة بقوا عملة صعبة - والست منا بتحس بالأمان مع الرجل اللى يدافع عن حقها .

شريف : أنا عملت كل ده علشانك - علشان بحبك - لكن مش علشان أكون الرجل بتاعك . فى رجالة كتير يستحقوكى أكثر منى .. أحلام هى الحب الحقيقى .

سالمة : هو ده اللى كنت خايفة منه - أحلام تاخدك منى .

شريف : عمرها ما هتوقف حبى ليكى ، بل يمكن تقويه .

سالمة : على العموم انتو شباب ولا يقين على بعض .

شريف : إحنا هنتجوز الخميس الجاى . وعمرنا ماهننساكى .

سالمة : انتو مش ممكن تنسونى - لانكوا لازم تسكنوا معى .

مش لازم نبعد عن بعض - بعد مالاقينا بعض - وأديك شايف البيت كبير قوى ومحتاج نفس فيه .

شريف : زى ما تحبى .

سالمة : وكمان الخميس الجاى ده بسرعة قوى - نخليه الخميس اللى بعده علشان نلحق نحضر للفرح .

ضحك ووافقها على الأمر ، وشعر بأنه رسا الآن على ضفة الحياة الحقيقية - والحقيقة هنا تعنى الكثافة التى ولدت باندماج الحب الجسدى لأحلام والحب الأسرى لسالمة .. وكان هذا كفيلاً بأن يجعله يخضع كليًا لهذه الحياه الجديدة . لا يريد أن يدوس على عنق الآخرين بهذا الفعل .

ولكنه أراد ألأ يتخلى عن الحب ويعطى لنفسه فرصة لإثبات وجوده بالحياة - وكان هذا الوجود يعنى الاستمرارية - قرر أن يكون شاهداً على الأحداث ، ووقت الشدة والحاجة سوف يعرف كل شخص دوره الحقيقى .

(٣٥)

بعد أن تناول الجميع الفطور والشاى جلسوا ليتناقشوا فى أمور المنزل.. والزفاف.

سالمة: البيت عايز توضيب كتير.

شريف: انتو توضبوه على كيفكو.

الشاعر: أنا من رأيي نخليه نظام عربى.

أحلام: عربى إيه؟! إحنا نجيب أنتريه أفرنجي وموكيت ونخليه نظام أمريكاني.

شريف: وانت ياسالمة رأيك إيه؟

سالمة: اللى تقول عليه ماشي.

شريف: أنا شايف البيت أثرى - لو وضبناه على الطريقة دى يبقى ده المناسب.

فرعونى هيليق عليه قوى - لا عربى ولا أفرنجى. ويبقى كده رجعنا للبيت حقه.. إيه رأيك ياسالمة؟؟

سالمة: البيت زى ماانتو شايفين قديم وآيل للسقوط - أهم حاجة نلحق نصلحه قبل ما يسقط على دماغنا.

شريف: ده هيحصل غصب عننا - بس نوضبه على أى طريقة؟!

سالمة: لو عايز رأيي يبقى حسن هو اللى يختار - واللى هيقول عليه هو اللى يمشي. بكرة كلنا هنموت وإن ماعملناش حساب حسن يبقى كلنا أنانيين بنفكر فى نفسنا وبس.

شريف: غلبتيني ياسالمة وكان لازم تغلبيني.

سالمة: أصل أول مرة واحد يسألنى عن رأيي.

شريف لحسن: إيه رأيك يا أبو علي.

طرقات شديدة على الباب. تعجب الجميع وارتعد شريف الذى

نسى أن يتأكد من وجود مسدسه بل نسى تماما أنه يحمله. هرعت سالمة نحوه وفتحته. سمعوا الصوت من على الباب.. كان دكتور عزيز.

سالمة: دكتور عزيز.. أهلاً وسهلاً اتفضل.

عزيز: إزيك ياسالمة.

سالمة: ماشفتكش من ساعة جنازة المرحوم.

عزيز: مشاغل - لكن دايما على البال وهو يدخل من على الباب ويتجه نحو الصالة متسائلاً.

سالمة: هنا - اتفضل.. اتفضل يا أهلاً وسهلاً .

شريف، مستغرباً: دكتور عزيز.

أبصر الجميع - ولم يعجبه وجود أحلام - قال له في حدة.

عزيز: أنا جيبت علشان أفكرك - وهو ينظر إلى أحلام - علشان باين عليك نسيت.

شريف: نسيت إيه؟؟

عزيز: مراد.

شريف يضرب بكف يده على رأسه متذكراً ومؤنباً نفسه.

عزيز: الطيارة فاضل عليها ساعتين - جه زارني وسأل عليك... يالا ماتضيعش وقت.. الحقه، وحاول تخليه يقعد ما يسافرش.

الشاعر يقترب من دكتور عزيز - وسالمة تقول:

سالمة: فاكر أحمد ابن الشيخ مصطفى صاحب المرحوم وصاحبك؟!

عزيز: هو انت أحمد.. كان عيل صغير.. ماشا الله كبر قوى.. أبوك كان راجل. رجل بمعنى الكلمة.

الشاعر: أنا لسه فاكرك يادكتور - فاكرك كويس قوى.

طرقات أخرى على الباب. تتعجب سالمة وتهرع نحو الباب مرة أخرى . وعزيز يتحدث لشريف.

عزيز: يالا ياشريف علشان تلحق مراد. وهو يخرج مفاتيح من

جيب الجاكيت ويعطيها له :

دى مفاتيح العربية الجيب - يالاً ماتضيعش وقت.

يسمع صوت الشيخ زيدان على الباب.

الشيخ زيدان : الحجاب ياسالمة.

سالمة : أهلاً ياشيخ زيدان.. فى بيتى كمان الحجاب يامولانا !

الشيخ : الحجاب فى كل مكان عفة. وهو يدخل دون استئذان، فيبصر الجميع ويتعجب من الأمر قائلاً بسخرية :

الشيخ زيدان : شريف مهران جمع الحبايب ونسى يعزمنى - وكأننا مش من البلد دى .

شريف فى حدة : انت مش محتاج عزومة، لأنك بتهجم على بيوت الناس وتدخلها من غير إذن.

الشيخ زيدان: الله يسامحك.. طول عمرك لسانك طويل.

شريف : عايز إيه يامولانا.

الشيخ زيدان: جاى أنصح - وأرشد الناس لطريق الهدى.

شريف : متشكرين مش محتاجين نصيحتك كل شىء واضح فى القرآن.

عزيز لشريف : روح انت ياشريف - وسيب الشيخ زيدان.

ينصرف شريف وخلفه أحلام التى أرادت أن تكون معه - ولكنه أصر أن تبقى مع سالمة.

خرج من المنزل بسرعة. والشيخ زيدان ينظر إلى الجميع ويشمئز من وجود أحلام.

الشيخ زيدان: دكتور عزيز سلم نمر وقعد على القهوة.

عزيز : عزيز فاهم بيعمل إيه؟ ياترى مولانا فاهم بيعمل إيه؟

الشيخ زيدان: منكم نستفيد.

لم تمر دقائق معدودة من رحيل شريف الذى ترك باب المنزل خلفه مفتوحاً.. واقتحم كمال ورجاله المنزل بصورة همجية. تعجب منه

الجميع. قال لهم بصوت عال وهو يرفع مسدسه:

كمال: ولا حركة كله يلزم مكانه.

أخذوا يسيرون بالمنزل بعجرفة وهم يبحثون عن شريف مهران - ويحطمون الأثاث، والجميع يستغرب الأمر.

سالمة: خير ياحضرة الضابط.

كمال: اخرسي ياولية - اقبضوا على الواد ده. وهو يشير إلى الشاعر. والواد ده. وهو يشير إلى حسن. وسالمة تصرخ قائلة:

سالمة : مش ممكن هو عمل إيه؟؟

كمال: اخرسي ياولية.. اقبضوا عليهم كلهم.. خذوهم كلهم.

ينفذ رجاله الأمر، وكأنهم عبيد مسلوبو الإرادة. ولكنه لم يجرؤ على القرب من الشيخ زيدان الذى وقف صامتا - هو ودكتور عزيز - وخرج الشيخ زيدان وهو يقول من على الباب:

الشيخ زيدان: لا حول ولا قوة إلا بالله.

كمال: اقبضوا على الشيخ ده.

الشيخ زيدان، فى ثقة كبيرة: أنا من رأيى تتكلم وتأخذ رأى الناس الكبار بتوعك قبل ماتغلط غلطة كبيرة زى دى ؟؟

يرتعد كمال - وينصرف الشيخ زيدان من أمامه دون أن يمسه أحد قائلاً :

الشيخ زيدان: عن إذنك عندى خطبة فى الجامع.

ومن بعده انصرف دكتور عزيز. أوقفه كمال، موجهًا كلامه لرجاله.

كمال: اقبضوا على الدكتور ده.

عزيز: بتهمة إيه؟ إن شاء الله!

كمال: تحرى.

عزيز: العب بعيد ياشاطر وهو يدفعه بأصابع يده باحتقار شديد. وينصرف لحاله.

ويضعف كمال الذى لم يجد مخرجًا من هذه الإهانة سوى الشخط برجاله بصوت عال: فين شريف مهران.

أحد الرجال: مش موجود يا افندم.

وضعوا الجميع بعربة البوكس - ولم ينسوا أن يحطموا أثاث المنزل قبل الرحيل.

(٣٦)

جلس الفتى الصغير بكافتيريا بمطار القاهرة الدولى حائراً متردداً، لم يتبق سوى ساعة واحدة على رحيل الطائرة إلى فرنسا. كان يتمنى أن يرى أخاه شريف قبل الرحيل، فهو الوحيد الذى يتمنى رؤيته قبل مغادرة هذا البلد إلى الأبد - بلا عودة. هكذا قرر الشاب ذو السابعة عشرة من العمر، والذى لايقل وسامة عن أخيه شريف، ولا يقل عزمًا وإصراراً وذكاء عنه أيضًا. عندما وصل شريف إلى المطار أبصر حوله بين الزحام باحثًا عنه، وعندما رآه مراد انشرح صدره وسعد كثيراً - نادى عليه بصوت عال فالتفت شريف وتوجه نحوه على الفور فتصافحا وتعانقا ثم جلس معه.

شريف: ناقص أد إيه على الطيارة؟

مراد: ساعة.

شريف: وانت خلاص قررت؟!

مراد: آه.

شريف: وياترى عايز إيه من بلاد الخواجات.. تجمع قرشين وترجع تجيب شقة وتتجوز!

مراد: لا..أنا عايز أتعلم.

شريف: الإنسان ممكن يتعلم من غير مايخرج من بيته - ومصر مدرسه كبيرة.

مراد: مليت العيشة هنا - زحمة ودوشة وكذب.. اتخنقت.. عايز أحس بإنسانيتى.. عايز أشوف الناس دى عايشة ازاى ؟ عايز أفهم بنفسى همّ الصح ولا احنا.

شريف: وانت فاكر الحياة هناك سهلهة- هتلاقيها على طبق من ذهب.

مراد: علشان كده عايزك تنصحنى.

شريف: يامراد نصحيتى ليك إنك تقعد هنا.. تكافح وتتعلم.

مراد: انت بتقول كده علشان خضت التجربة بنفسك - أنا كمان عايز أخوض التجربة.

شريف: تجربة مرة وقاسية - مش هتستحمل البرد ومحدش هيسأل عنك.. يمكن يبهرك الأدب والنظام والشغل، لكن الحقيقة بتاعتهم قاسيه جداً.

مراد: مش هتقدر تغير قرارى.

شريف: براحتك - الإنسانية اللى بيتكلموا عليها دى آخر حاجة بيعملوها - وأول حاجة لو فيه فلوس جاية منها.

مراد: عايز اشوف بنفسى واحكم بنفسى.

شريف: معك فلوس؟!

مراد: ولا مليم.

شريف: إنت مجنون! إعايز تسافر ممعاكش فلوس؟!

مراد: ما انت عملت كده.

شريف: أنا كانت ظروفى مختلفة.

مراد: أنا عايز نصيحتك ياشريف.

شريف: نصيحتى ليك تحرص ولاتخون.. تهتم بنفسك.. نفسك تجى أول حاجة، واتعلم - اتعلم منهم كل حاجة حلوة - ودايماً تحسسهم إنك مش فى حاجة ليهم حتى لو كنت فى حاجه ليهم - ولو حد بص عليك باحتقار اعمل زيه وارفع رأسك لفوق. الناس المتكبرة

دايماً بتعمل حساب للمتكبر اللى زيهم وبترجع تتواضع أدّامه - واوعى تيأس.. لو مالقيتش تاكل ماتخجلش إنك تسأل - سيبك من الفهلوة بتاعت مصر مش هتنفع هناك.

خليك دايماً صادق مع نفسك.

مراد: والشغل.. فين ألاقى الشغل.

شريف: الشغل هناك نظام جاليات - كل جالية بتحب تشغل الناس بتوعها، ومتحدين مع بعض إلا العرب. حاول مع كل جالية ولو زنقت معك قوى روح على الحى اليهودى.

مراد: عايزنى أشتغل مع اليهود؟

شريف: ده إنت تبقى محظوظ لو شغلوك معاهم.. الشغل معهم مضمون - بس ابعد عن السياسة.. قل لهم إحنا ولاد عم - هم عندهم السياسة والفلوس، واحنا الأيدى العاملة.. هيستغلّوك فى حكاية الفلوس شوية.. مش مهم لحد ما تقف على رجليك وتفهم نظام البلد.

مراد: والقضية ياشريف.. عايزنى أتعامل مع اليهود؟!

شريف: قضية إيه؟؟ إنت لو فكرت التفكير ده - فى أوربا يبقى إن شاء الله هتموت من الجوع - أنت فكرك ان العرب بس هم اللى بيكرهو اليهود ده العالم كله بيكرههم بس محدش بيظهر دى - ثم إن القضية بينهم وبين الفلسطينيين.. عمرك شوفت دولة بتحارب علشان دولة ثانية؟! إحنا بلد فيها اللى مكفيها ومش عارفين نعيش يبقى ندور على حرب!! الفلسطينيين لازم يضحوا علشان بلدهم وأرضهم.. علشان لما يستردوها يعرفوا قيمتها وما يفرطوش فيها تانى. على العموم دى حاجه ترجعلك إنت - دى نصحيتى لك.

يخرج شريف محفظته ويخرج بعض النقود الأجنبية:

دول ألف دولار خليهم معاك - وخللى بالك من نفسك.

مراد: أنا متشكر قوى ياشريف - وإن شاء الله أول ما اشتغل هردهملك.

شريف: بلاش كلام فارغ. على فكرة خللى بالك من النسوان هناك.
حاول بقدر الإمكان بقدر الإمكان تبعد عنهم - أنا عارف إنك شاب صغير.. وبالنسبة لهم هتبقى لقطة.
مراد: الكلام ده مش فى بالى.
شريف: أنا عارف لكن بحذرك - عاداتنا وتقاليدنا بتختلف عنهم - ما دمت فى بلدهم متحاولش تغيرهم.. ولاتتغير بيهم.
واوعى تمد إيدك على مرة.. اضرب عشرين رجل لو عايز ومش هتدخل السجن - لكن لو مديت إيدك على واحدة هتروح فى داهية وتخش السجن، وإن عاشرت عاشر واحدة بتحبك مش انت اللى تحبها - خليهم هم اللى يجروا وراك، وخلى بالك من الهاديين البنات اللى شكلهم حلو وناعم ويبان عليهم أطيب خلق الله - النوع ده من النسوان بيعرف هو عايز إيه وياخده منك ويعذبك بعد كده والنوع اللى يتكلم كتير متخافش منه. وهناك هتقابل نسوان شكل الرجالة.. بتكره الرجالة علشان هم رجالة - متقربش منهم. النوع ده جواه غضب كبير وعاملين زى الشياطين.
مراد: وإيه كمان ياشريف.
شريف: هتقابل مجانين كتير - أو إنت هتشوفهم مجانين - تتعامل مع كل واحد على قد عقله.. وحدد هدفك.
مراد: هى دى الحاجة الوحيدة اللى عارفها.
شريف: وياترى إيه هو هدفك؟
مراد: أتعلم سيما فى باريس - وأرجع أعمل فيلم عنك.
شريف: اعمل فيلم عن نفسك - لو عملت فيلم عن نفسك يبقى عملت فيلم عني.
مراد: ما افتكرش إنى هقدر أعيش الحياة اللى إنت عشتها.
شريف: لكن هتقدر تحس الإحساس اللى حسيته وكل واحد حسه.
مراد،وهو ينهض من مكانه ويحمل حقائبه: الطيارة قربت تقوم.

شريف يعانقه ويقبله : خلي بالك من نفسك .
يضغط مراد عليه قائلاً وهو يبكي :
مراد : مسألتنيش عن أمي .
شريف : صحيح ماما أخبارها إيه ؟ ؟
مراد : أمك ماتت ياشريف . وهو يعانقه بشدة ولايستطيع مواجهته . ماتت وهي نفسها تشوفك - كانت راضية عنك - راضية عنك أكثر من أي واحد فينا .

تغيرت ملامحه عند سماع نبأ وفاة أمه ، وارتسم الحزن والغضب على وجهه .

(٣٧)

شعر برغبة قوية بالبكاء ولكنه تماسك أمام أخيه الصغير وهو يودعه . خشي أن يحمله أكثر من طاقته . . أدرك أن أمامه رحلة طويلة . نصحه في النهاية بأن ينتقم من أيام العذاب والحزن باغتصاب السعادة رغماً عنها .

وعندما ركب السيارة في طريق عودته من المطار سالت الدموع من عينيه . لم يستطع التحكم في إيقافها . . لقد رحل القلب الطاهر الطيب ، رحلت الأم التي أخرجته من مقبرته ، ليحيا ويتألم بفراقها ، رحلت دون وداع . كان هذا ما يؤلمه كثيراً وأخذ يؤنب نفسه على عدم زيارتها - تذكر نصيحته الأخيرة لأخيه أن ينتقم من أيام العذاب والحزن باغتصاب السعادة رغماً عنها . تذكر ذلك وعجلات السيارة تطير من على الأرض وكأنه يدوس على كل أشكال الابتذال والفوضى في هذا البلد . الغضب بداخله يستطيع أن يحطم أسواراً - وجبالاً - كان لايدرك إلى أين يذهب . . أراد أن يكون وحيداً في عالمه الخاص ، ولكن سرعان ما قرر أن لايجعل الحزن مسيطراً عليه . . تذكر سالمة وأحلام . أفراد أسرته الجديدة الذين اختارهم بمحض إرادته . لقد خدمه الحظ دون

أن يدرك ونجا من بطش كمال - والآن كارثة كبرى سماع نبأ وفاة أمه التي كان لايطيق غضبها لحظة واحدة. التي كان يخشى عليها من لفحة الهواء. تذكر أن حياته مرت ولم يقض مع أمه وقتًا طويلاً يستمتع بحبها. لقد كان في كل وقت يراها يقضي وقتًا قصيراً ثم يطير إلى عالم آخر. كانت تثق به وبقدراته. ولم تؤنبه يومًا على ذلك، وكأنها تدرك ما بداخله - إن وجوده بهذه الحياة له رسالة قوية ولكنه لايعي الرسالة.. لايعي حتى وجوده - دائمًا مايختبر وجوده بين الناس، ودائمًا قوة غير عادية تجعله يحيا وتنقذه من مطباته وجنونه.. أدرك أن أحلام هي الحب الحقيقي الذى انقبض قلبه لها - أحلام هى الوحيده التي سوف تجعله يحيا على ضفة الحياة الحقيقية، هى التي بحث عنها طويلاً. قرر أن يذهب إليها ويخطفها رغم أنف الجميع.

في ذلك الوقت كان كمال يجلس بمكتبه سعيداً.. لقد وضعهم جميعًا بالحجز فى قسم البوليس.. بحجز النساء سالمة وأحلام، وأحمد الشاعر وجه إليه تهمة الاعتداء على صاحب المنزل وأرسله إلى النيابة والطفل حسن أرسله إلى مبنى الأحداث. شعر بأنه ضرب عصفورين بحجر واحد. لقد خدمة الحظ كثيراً بعدم القبض على شريف مهران وبهذا لن يغضب عليه رئيسه فوزى البنا، والآن سوف يستفز غرور شريف مهران.. لقد هدمْ منزله الذى حاول أن يبنيه دون رغبتهم. فجأة ساوره بعض الشك.. وساوس كثيرة خطرت بباله عن رد فعل شريف مهران الجنونية.. خشى منه وتسمر فى كرسيه. أدرك أن الرجل الذى لايخشى القانون والموت عندما يعلم بذلك قد يغضب ويجن - ومن الصعب التنبؤ بما هو فاعل! ساوره القلق من مواجهة الوغد المتمرد الذى يحمل سلاحًا. أراد أن يذهب إلى منزله ويستريح، ولكنه خشى أن يذهب وحده فاصطحب بعض رجال الشرطة أعوانه مدعيًا أن سيارته غير صالحة.

جن جنونه عندما وصل الى منزل سالمة ولم يجد أحداً .. أخذ ينادى عليهم بصوت عال وصدى الصوت يدوى بالمكان كالقنابل. فتش بجميع الغرف لم يجد أثراً - فقط آثار تدمير المنزل واضحة - وهنا أدرك أن هناك مؤامرة دبرت ضده. شخص ما حطم المنزل الذى بناه بنفسه ولم يجن ثمار تعبه بعد. على الفور أدرك أنه الشيخ زيدان لايوجد سواه.. وهو الذى كان متواجداً فى أثناء رحيله. لم يفكر بالأمر مرتين.. أخرج مسدسه وأطلق رصاصة فى الهواء قائلاً بصوت عال:

ـ جيلك ياشيخ زيدان.

قاد السيارة بسرعة فائقة وقلبه يحترق غيظًا: هذه ليست قوانين لعب الكبار يا زيدان.. كيف يجرؤ على فعل ذلك؟ ماذنب هؤلاء الأبرياء بهذه اللعبة القذرة؟ لماذا يريد لهم العذاب والشقاء؟ لماذا يحاول التخريب وهو الذى يطالب بالتعمير؟ إن فى الأمر شكًا لا يعلم باطنه. عاوده الشك بوجوده.. تحقق من يديه الضاغطه على الدركسيون ليتحقق من نفسه وتحسس باقى أعضاء جسده. هلوسة بسيطة خطرت بعقله - سرعان ماحرقه الغضب والغيظ الشديد.. أدرك أن الجميع يعمل لمصلحته الشخصية.. الجميع يستغل وجوده إذا كان فعلاً متواجداً بهذه الحياة القذرة - هو الذى يعبر عما بداخلهم - الجميع يريده معه.. حتى عزيز أصبح كذبة - لقد رأى ذلك فى عينيه عندما وجد أحلام معه. ياللقذارة - سوف تدفعون جميعاً الثمن غاليًا.. نتيجة لأغراضكم الشخصية الدنيئة تبحثون عن الشهرة والمجد والسلطة - غريزة إنسانية ساحقة - ولم ولن تتعلموا من كتاب التاريخ.. تعيشون بين الحضارات وكأنكم تعيشون بالغابات.

عندما وصل إلى الجامع الكبير بصحراء المقطم وجد بعض الملتحين يرتدون زيهم الأبيض ويقومون بالذكر على أناشيد دينية خارج الجامع،

وعلى باب الجامع وجد بعض الحرس بأسلحتهم النارية. تبادل معهم نظرات التحدى. لم يتذكره أحد - دائماً وجوه جديده تخضع للساحر زيدان. أخرج مسدسه وألقى به على الأرض قائلاً.

شريف: شريف مهران عايز اقابل الشيخ زيدان.

شعر بالحسرة الشديدة على هؤلاء التابعين غير المبصرين بحقيقة شيخهم زيدان.. ما أسوأ هذا الرجل الذى يدعى الفقه بالإسلام لغرضه الشخصى - هذا الرجل الذى يسيء إلى سمعة الإسلام ويشوه صورته الجميلة.. ويحوله إلى صورة دموية.. ألم يفيقوا بعد من غفلتهم ويدركوا الحقيقة؟! ألا يعلمون أن الإنسان إذا أصابه المرض يذهب لطبيب درس الطب وتعلمه ليأخذ نصيحته الطبية. ألا يدركون أن الأمور أصبحت اقتصادية وسياسية بحتة - وليست دينية - لم يأت الحاكم بعد الذى أمر بمنع الصلاة والعبادة وإذا أتى سوف يكون هو أول من يصوب رصاصة فى رأسه.

لم يفقد الأمل بعد.. أدرك أن بينهم شخصاً ما سوف يفيق من غيبوبته وسوف يحارب بنفسه زيدان وينتصر عليه وسوف يكون أفضل من شريف مهران.

سمحوا له بالدخول ووجده جالساً على منبره.

الشيخ زيدان: تعالى يا ابن مهران - كنت عارف إنك لما تقع فى زنقه هتيجى هنا.

ثم نزل من على السلالم ووصل إليه ثم قال مستطرداً وشريف يراقبه بنظرات الغضب:

البقية فى حياتك - ماادتنيش فرصة أقولك النهارده الصبح.

شريف، فى حدة شديدة: فين سالمة يامولانا؟

زيدان: مش عندى.. خدها الضابط اللى كان بيراقبك، وخد كل الموجودين.

الآن زال الشك وأدرك الحقيقة أن مثل هذا العمل الأحمق لايقوم به

سوى شخص أحمق شخص قليل الحنكة - أما الكبار فلهم ألاعيبهم الأخرى الأكثر سوءاً.

شريف : عايزنى أصدقك؟!

زيدان : إنت عارفنى كويس - وان ماكنتش مصدق اسأل أستاذك دكتور عزيز.

شريف : خدوه هو كمان؟!

زيدان : لا.

شريف : يعني الغلابة - دايماً الغلابة هم اللي يقعوا فيها والكبار لا.. وانت كنت فين لما خدهم - دافعت عن نفسك وبس.

زيدان : الغلابة لازم يتعلموا يا ابن مهران.. وماتنساش إن فى يوم من الأيام كنا غلابة.

شريف : مش ممكن - مش ممكن.

زيدان : اسمع ياشريف - ننسى اللى فات ونرجع نشتغل مع بعض.

شريف : طريقنا مختلف يامولانا.

زيدان : هدفنا واحد.

شريف : أنا لما انضميت معك كان هدفنا واحد نقول للغرب إنكم حرامية سرقتوا الدين بتاعنا.. قوانينه وقواعده - وخليتوا فيه الغريزة بتاعتكم.. ونسبتوا كل ده لحضارتكم - شعوب متكبرة مش عايزين يعترفوا بالحقيقة على الرغم من إنها واضحة قدامهم زى الشمس - شياطين.. وانت كمان شجعتنى على كده وكنت بتأيدنى - على أساس علمى ودينى - لكن للأسف يامولانا لقيت عندك أهداف تانية.

زيدان : هدفنا واحد - إحنا بنحارب الفساد سواء فى الداخل أو الخارج.

شريف : قصدك هدفك أنت.

زيدان : إنت وانا وزاهر الكافر بتاعك - ودكتور عزيز اللى عايزها

تبقى خلطبيطة.. كلنا هدفنا واحد.

شريف: ياخوفى من اللى هيوصل الأول.

زيدان: بلاش عند.. مع بعض هنقدر نعمل كتير - هخليك تضمن لسالمة وأحلام مستقبل كويس.

شريف: آخر يوم فى عمرك لو قربت لحد منهم.

زيدان: يعجبنى شجاعتك - علشان كده أنا صابر عليك. على فكرة أبوك فى آخر أيامه بعد ما خرج من المستشفى كان بيصلى معنا هنا. كان نفسه يشوفك ويعتذر لك.

شريف: كل اللى بيجيلك خايف من الجنون أو المرض - أو الموت.

زيدان: وانت جيت ليه؟

شريف: كنت مريض لكن للأسف ما كنتش دكتور.. افتكرتك دكتور.

زيدان: ودلوقتى لقيت دكتور.

شريف: لقيت كتاب جميل فيه كل أسرار الطب.. وانت بتشوهه.

زيدان: سامح أبوك ياشريف.. سامحه فى تربته.

شريف: وهو مرحمنيش فى تربتى.

زيدان: أمك طلعتك منها - والأطفال لازم تتعلم.

شريف: قصدك لازم تتعقد وتتألم.

زيدان: بحرك غويط ومالوش قرار ياابن مهران.

شريف: إيمانى بالله كبير - وانت سرك باتع.. عاملهم سحر.

زيدان: سحرى مش نافع معك.

شريف: ده لأنى نيتى خالصة لله - وماليش غرض فى نفس يعقوب.

زيدان: علشان كده أنا عايزك معنا - غرضنا الخير للجميع.

شريف: الخير ماينفعش بالتهديد والإجبار.

زيدان: أحيانا الإنسان بيكون أعمى ومحتاج دليل.

شريف : ولما يكون الدليل أعمى وهو بصير.
زيدان، في حدة وغضب شديد وصوت عال بعد أن نفد صبره وفقد برود أعصابه:
شريف، أنا بحذرك - وهديك فرصة.
شريف : وأنا بحذرك ابعد عن سالمة وأحلام.
زيدان : مشكلتك إنك مش فاهم إن إحنا نظام ومش بتوع دين وبس.
شريف : نظام خايب.. يستغل الدين ستارة - بتدعو إنكم بتعادوا الغرب والحقيقة إنكم لو وصلتوا للى إنتوا عايزينه هتبقوا أول ناس محتاجين لهم.
سيب الدين فى حالة ياشيخنا.. واطلب اللى أنت عايزه.
زيدان : اسمع يا شريف - فكر.. فكر كويس.. كفتى هى الأرجح دلوقتى.
أديك جربت كله.. انا هديك فرصة أخيرة.
شريف : سالمة وأحلام.
زيدان مقاطعًا : بالنسبة لسالمة روح لفوزى البنا الفاجر عامل حفله في بيته ، ولو عايز سلاح ورجاله - خد اللى أنت عايزه من على الباب.
شريف : أنا عايز سلاحى بس وأنا خارج من هنا.
زيدان : ماشى يا ابن مهران.

(٣٩)

أضواء الشارع تعكس ضوءاً خافتًا يتسرب شعاعه إلى نافذة غرفة الحبس بقسم البوليس. سالمة تجلس بجوار أحلام تتساءل مع نفسها : ماذا فعلت لكى تستحق هذا العذاب؟؟ ماذا كانت جريمتها؟ لا تعلم!!
جعلوها تشك بنفسها هى التى لم ترتكب جريمة فى حياتها.. لم تخالف القانون.. لم تشاغب.. لم تفعل شيئًا على الإطلاق سوى

الطاعة العمياء لأوامرهم القاسية وقوانينهم الحمقاء التى يتدعونها كل يوم من أجل مصالحهم الشخصية.. قامت بجميع واجباتها على أتم الكمال.. حتى حقوقها التى من المفروض أن تطالب بها أصبحت من الواجبات أن لا تطالب بها - وفعلت ذلك.

قالوا لها محضر تحرى وقد يستغرق هذا الأمر عدة أيام - على الرغم من أن القانون لا يسمح بأكثر من أربعة وعشرين ساعة. ومن حقها بعد ذلك أن تتساءل - ولكن كما قلنا من قبل أصبح من واجبات المواطن العادى المسكين أن لا يتساءل، فقط ينفذ. كانت تتألم كثيراً لذلك وعلمت أن شريف مهران رجل يعنى الكثير لها. حتى أعداؤها التى تعتقد أنهم كفار بلا قلوب ولا إيمان لا يفعلون ذلك مع ناسهم.. حتى الحيوانات من الصعب أن تجبرهم أن يفعلوا ذلك مع بعضهم البعض.. ما الذى يحدث؟؟ هل كانت في غفلة طويلة ولم تفق بعد. هل تفيق الآن وتصرخ - تصرخ كما قال لها شريف عندما تقابل معها للمرة الأولى .. كانت تود أن تفعل ذلك، لكن بداخلها قررت أن تكتم الصرخة حتى عندما تصدر تكون أعلى وتدوى فى السماء. كانت أحلام بجوارها تدخن سيجارتها مهمومة على حالها. كانت تعلم مصيرها ولكنها كانت حائرة بين اختيارين: الأول تستطيع أن تخرج في تلك اللحظة وتدفع الثمن جسدها للخليع النذل، وربما بعض أصدقائه أيضًا - والثانى وهو الأصعب أن تصمد وتصبر حتى يأتى شريف بسلاحه ويخرجها من هذا السجن. تدرك تمامًا أن المجتمع والحكومة لن ترحمها.. أخذت تفكر فى الساعات المعدودة التى قضتها معه. مرت كالحلم الجميل أفاقت منه على كابوس فظيع - وما عليها الآن سوى أن تنتظر ليلة أخرى يسطع القمر ويرتاح البال وينشرح الصدر وتشم رائحة الزهور، وهذا الرجل الذى أشعرها بآدميتها.. أخرجتها سالمة من عالمها الخاص عندما سمعتها متسائلة مع نفسها:

طب أنا عملت إيه؟؟ وبيعملوا معى كده ليه؟؟ هى الشرطة مش فى خدمة الشعب؟ وتحرى إيه ده؟؟ هو أنا مجرمة؟؟ طب لو مجرمة.كان عملوا معى إيه؟

(٤٠)

في العاشرة مساء أعد نفسه لمقابلة فوزى البنا.. اخترق حي مصر الجديدة وهو يسير مترنحًا من أثر الخمر - قابضًا على زجاجة الفودكا الروسى .. لاشك أن مقابلة فوزى تختلف كثيراً عن مقابلة الشيخ زيدان.. رجل شديد الحرص - أبوابه مغلقة وقلاعه حصينة ورجاله كثير مسلحون وميزان القوة يرجح كفته، التهور والاندفاع قد يقصف بعمره في لحظة. ولكن ميزان العقل هذا ما سوف يلعب على أوتاره. الخمر بداية اللعبة فهو يفضل زبائنه خارجين عن الوعى ليفتخر بوعيه..لو حرص هذا الوغد على هذا البلد بقدر حرصه على نفسه لقضى على الدهشان وزيدان وغيرهم ووفر عليه كل هذا العناء .. احتسى ما تبقى بالزجاجة حتى آخر نقطة ثم ألقى بها على الأرض بغضب شديد فتحطمت إلى قطع صغيرة. نعم سوف يكون خارجًا عن الوعى ولكن فوزى لن يفطن إلى أن الخمر سوف تجعله يشعر بأنه أكثر شجاعة.. وسوف يكون مبدعًا. لقد تأهب لتمثيل دوره بكل الاحتمالات - ارتدى بدلة أنيقة جدًا تتلاءم مع جو الحفل المقام.. بداخله شعور قوى أن يصرخ عاليًا قائلاً إن الدنيا لا تساوى غيره. ولكنه فضل أن يكتم ذلك بداخله فعلى الطريق بعض من أفراد رجاله بزى غير رسمى.. لم يرتح لمنظرهم، ومضى في طريقه متخذاً مشية طبيعية جداً بفضل قوة أعصابه. مجرد الاشتباه بأداء دوره قد يقضى على حياته، ولكنه تأكد من سلاحه حتى لو حدث ذلك سوف يأخذ معه البعض منهم حتى يموت موتة ذات معنى - هو أمير المدينة وشجيعها.

على بعد عدة أمتار وجد الڤيللا مزينة بالأضواء .. وعلى بابها يقف فوزى البنا باستقبال ضيوفه ومعه بعض الحرس.. ارتاب فى بادئ الأمر وتوقف مدعيًا أنه يعدل من ملابسه حتى لاتثير الشكوك. هذا ليس فى حسبان خطته.. لايود أن يتقابل معه على الفور حتى لاتنتهى المقابلة قبل بدايتها.. ود أيضًا أن يرى بعض ضيوفه وماذا يفعلون داخل هذه الڤيللا الضخمة؟؟!! سرعان ما خدمه الحظ وخطا فوزى مع بعض ضيوفه إلى داخل الڤيللا.. انتهز هذه الفرصة بسرعة وهرع نحو الحرس ما أسهل أن يخدع حرسه الخاضع التابع لكل سلطة. مثل هؤلاء البشر لايفكرون بعقولهم ودائمًا ما يخشون المناصب العليا. ترنح من أثر الخمر وتظاهر بأنه أكثر ثملاً حتى يحبك روايته. سأله الحرس عن بطاقة الدعوة.. رد بكل ثقة وقوة أعصاب.

شريف: دعوة إيه؟؟ إنت مش عارف أنا مين؟؟ فين فوزى!! انت فين يالوز. كان هذا كفيلاً أن يجعل الحرس يعتقدون أنه من الصحاب. ولكن قانون لعبته أن يترك مسدسه بالخارج - لايفطن الحرس لذلك - أخرج مسدسه قائلاً وهو يسلمه لهم: خللى ده معاكوا.. هخده منكم وأنا خارج - علشان أنا سكران شوية، وبتنرفز بسرعة وانا سكران.

أحد الحرس: عين العقل ياسعادة الباشا - اتفضل.

تنفس الصعداء.. وسعد لنجاح دوره الذى تفوق به على أى ممثل محترف. حاول أن يتجنب لقاءه على الفور.. وأخذ يسير بين الضيوف.

(٤١)

سحب كأس خمر بحرفية شديدة من فوق صينية كان يحملها أحد جرسونات الحفل.. وأخذ يحتسى منه شفطة وهو يسير بين نساء ورجال الحفل - والموسيقى الأجنبية الصاخبة تدوى بالمكان وتجعله أكثر إزعاجًا .. وبعض الضيوف الحمقى يتراقصون على أنغامها كأنهم قرود

في سيرك. ولا توجد متعه أفضل من التسلى بالنظر لهؤلاء البشر والاستماع لحديثهم وهو يسير ببطء بينهم لا يعطى لحاسة الأذن ميزان المقال، فقط يعطي غيظًا شديداً - كتمه بداخله - لم يستمع إلى كلمة واحدة تضمن لهذا البلد المستقبل الأفضل من قوم لديهم السلطة لعمل ذلك.. أناس مزيفة ترتدى ملابس أثمن منهم بكثير.. شعر بالحسرة الشديدة عليهم وعلى نفسه - هو الذى يدافع عنهم وهم حتى لايستحقون أن تبصق عليهم - تعجب لكرههم الشديد للأمريكان وعلى الرغم من ذلك يقلدونهم تقليداً أعمى وها هم يتراقصون على أنغام موسيقاهم !! أدرك الآن لماذا يفعل الأمريكان بنا ذلك لأننا نشجعهم على ذلك. قرر أن يسخر منهم جميعًا وبنفس الوقت يجذب انتباه الوغد الذى أتى من أجله. خطرت بباله فكرة جنونية: لايوجد أفضل من السخرية من هؤلاء البلهاء. وعلى الرجال أن يفيقوا ويعوا الدرس. احتسى الكاس مرة واحدة، وسار نحو خشبة الرقص، وأخذ يتراقص بطريقة هزلية جداً... لفتت الأنظار إليه. حملق بعض الرجال بأعين لا تصدق، وانتابتهم حالة من الذهول. تسمروا بأماكنهم كالتنابل، وهم يبصرونه وهو يرفع قدمه ويده إلى أعلى ويتحرك حركات بهلوانية وهو يرقص على أنغام الموسيقى. فر بعض الراقصين عندما اقترب منهم - أبصر امرأه وجذبها نحوه ثم أخذ يرفع حاجبيه الصاعدة شعيراتهما إلى أعلى. ظنت المرأة أنه مجنون - ولكنه ظل يتراقص بخفة شديدة مع أنغام الموسيقى، وأخذ يقلد القرد وجميع الحيوانات ويجذب رجالاً ونساء نحوه ثم يفرون منه هاربين معتقدين أنه مجنون. لمح كمال وفوزى البنا، وبسرعة طلب فوزى من كمال أن يسحبه بهدوء إلى غرفة مكتبه. توقف شريف تمامًا والجميع ينظر إليه ثم قال لهم - وكمال يتجه نحوه.. والبعض يضحك بصوت عال.

شريف: هو ده شكلكوا الحقيقى وانتوا بترقصوا - اضحكوا..

اضحكوا على نفسكوا - يلاّ ارقصوا واسمعوا موسيقى الأمريكان - بس وكمال يجذبه من يده بهدوء وينظر إلى المدعوين قائلاً مقاطعًا .

كمال : معلش ياجماعة - الأستاذ شريف سكران شوية .

شريف : مستطرداً : متقولوش الأمريكان بيعملوا ليه فينا كده؟؟ متقولوش الأمريكان بـ بـ....

يكتم كمال فمه ويأخذه إلى الطابق العلوى . وكالعادة استغرب البعض ، وضحك البعض وغضب البعض ، وآخرون لم يفهموا مادار حولهم . . وأكثرهم كانوا سكارى ولم يدركوا على الإطلاق ماحدث .

دفعه بشدة داخل غرفة المكتب فهوى شريف على كرسى هزاز أمام المكتب فوجدها فرصة طيبه للجلوس . تساءل كمال بصوت عالٍ وغضب شديد .

كمال : إنت دخلت هنا ازاى ؟؟

شريف ، ضاحكًا : دخلت من الباب .

تابعهم بالدخول فوزى ... وتبادلا النظرات - ثم قال شريف مستطرداً وهو يوجه كلامه لفوزى البنا ، وهو يسير نحو كرسيه ليجلس عليه : وسلاحى سبته على الباب مع الحارس .

سعد فوزى لسماع هذا القول وأدرك أنه أمام خصم يستحق الاحترام . غادر كمال الغرفة بسرعة ليتأكد من قوله . جلس فوزى على كرسيه وسأل محاولاً التأكيد :

فوزى : سبت سلاحك على الباب؟؟

شريف : مايصحش أقابلك بالمسدس .

مرت لحظات صامتة . . لم ينبس أحدهما بكلمة ، وكأن كلاً منهما يدخر لنفسه الكلمات التى سوف تخرج من فمه . عاد كمال إلى الغرفة وبيديه المسدس وبعض الحرس . . وضع السلاح على المكتب أمام فوزى البنا . ثم قال بصوت عال وغضب شديد موجهًا كلامه إليه :

كمال : إنت فاكر نفسك مين ياروح أمك؟ ثم توجه نحوه ليلطمه.

على الفور استوقفه فوزى شاخطًا بصوت عال :

فوزى : كمال.. من فضلك سبونا لوحدنا - اخرجوا للضيوف.

انتابه الغضب الشديد، وكتم غضبه بداخله. هذه هي ثاني مرة يقوم بإحراجه، وهذه المرة أمام رجاله.. ومواطن حقير ود أن يقتله في تلك اللحظة. خرج مع رجاله من الغرفة وتبادل مع شريف النظرات الحادة وعينه قائلة: لن تفلت من عقابي يا وغد.. وخرجوا من الغرفة.

فوزى: إنت عايز إيه؟

شريف: حفلة جميلة يافوزى بيه: أكل نضيف - وخمرة مش مغشوشة - هو ده التقدم الحقيقي.. تعرف يافوزى بيه تقدم البلد بيبان من الرخاء اللى الناس عايشة فيه.

فوزى: إنت عارف إن حياتك عندنا متساويش طلقة واحدة.

شريف: عارف - لكن الطلقة دى تساوى عندى كتير.. علشان أخلص من قرفكم وأموت راجل.

فوزى : يعجبني شجاعتك.

شريف: وانا يعجبني احترامك للخصم.

فوزى : إوعى تفتكر إني خايف منك زى الناس التانية؟ أنا زيك.. الخوف مالوش في قلبي مكان.

شريف: عارف دى كويس قوى .

فوزى : إنت تعرف عني إيه؟؟ في خبث شديد.

شريف: أعرف كتير.. بتدعى الصدق وماتحبش اللف والدوران.

فوزى : عظيم - يبقى تقوللي الفلوس راحت فين ولمين.. وراحت لمين دى مهمة جدًا.

شريف، ضاحكًا: الفلوس خدها الغراب وطار.

فوزى، في حزم شديد: شريف.

شريف : يافوزى بيه - المليون دولار دول الدهشان معه زيهم عشرين مرة .. خدوهم منه واعملوا بيهم اللى أنا عملته.

فوزى : وإنت عملت إيه؟

شريف : وزعتهم على الفقرا.

فوزى : عايزنى أصدقك؟! عامل لى روبين هود عصرك.

شريف : سيبوا سالمة في حالها.

فوزى : قصدك إيه؟

شريف : أنا جى هنا علشان سالمة وأحلام - الضابط بتاعك اتهجم على بيتها وقبض على كل اللى قاعدين عندها.

فوزى، في استغراب شديد : بتقول إيه؟؟

شريف : عايز تقول لى إن ماعندكش علم؟!

فوزى : بشرفى ماعندى علم بالحكاية دى.

شريف : إنت ذكى جداً فى اختيارك للضابط اللى يتولى مهمتى ... يعمل اللى هو عايزه أو الحقيقة اللى إنت عايزه وإنت تعمل نفسك مش واخد بالك.

فوزى : بلاش تلعب معى شطرنج .. أنا معنديش علم بالحكاية دى، لكن عندى علم إنك جمعت شوية لصوص فى بيت سالمة - ويمكن علشان كده قبض عليهم.

شريف : الناس دى مش مجرمين .. سيبوهم فى حالهم.

فوزى : إنت فاكر إنى عدو الشعب؟!

شريف : قتلتوا فينا الثقة.

فوزى : كده هنخرج عن الموضوع - وندخل فى متاهات فاضية .. الفلوس فين .. وراحت لمين؟

شريف : عايز تعرف - سيبهم فى حالهم وخليهم يعيشوا وخرجهم بره لعبتنا.

فوزى : اسمع ياشريف، السبب الوحيد اللى مخلينى سايبك لحد دلوقتى لأنك بتعمل من أجل المصلحة العامة - والحرية والديمقراطية اللى بتتكلم عنها دى لو اديناها للناس مرة واحدة البلد هتبقى فى تسيب.

شريف : واللى إحنا فيه ده مش تسيب؟!

فوزى : شوية.. شوية.. لازم يتعلموا شوية .. شوية.

شريف : مش مقتنع بالكلام ده.. فى يوم وليلة نظام بلاد بيتغير.

فوزى : إنت عايز إيه بالضبط؟؟

شريف : أنا مش عايز حاجة.. وقررت أعيش زى بقيت الناس أتجوز أحلام وأخلى بالى من سالمة - واللى هيتعرضلى هارجع زى النسر.

فوزى : والناس اللى إنت بتشتغل معها؟ اوفى خبث شديد محاولاً معرفة حقيقته.

شريف : أنا مابشتغلش مع حد.. وهو ينظر إلى المسدس فوق المكتب.. الحكاية مسدس وقضية حق - وقلب جرىء عمل لكو قلق.. وكشفكو على حقيقتكو.

فوزى، ينهض من على كرسيه ويتجه نحوه وهو واقف ثم يضع يده على كتفه قائلاً:

اسمع ياشريف.. إنت شايل هموم أكبر من طاقتك - استريحلك شوية وانسى.. أنا عارف إن مالكش مصلحة خاصة من كل اللى بتعمله ده.. لازم تثق فينا إحنا مش أعداءك - سيب الشغل ده لناسه طالما إنت مش عايز تشتغل فى الموضوع ده.

شريف ينظر إليه مطيعاً، ثم يعود وينظر إلى مسدسه وفوزى يراقب نظراته قائلاً:

بلاش ياشريف.

شريف : أوعدك يوم فرحى هسلمهولك بنفسى.

فوزى، بنظرات الموافقة: ماشى ياشريف - وأنا أوعدك إنى أحضر فرحك.

كظم كمال غيظه الشديد وهو يراقب فوزى البنا يودع شريف على الباب.. لم يصدق مارأت عينه - هل فوزى البنا يسخر منه؟؟ ملأ الحقد قلبه.. قرر بنفسه أن يتابع خطواته. لقد رأى الضعف فى عينيه وسوف ينال منه مايشفى العله بداخله.

(٤٣)

وجد نفسه يسير فى شارع مظلم لايدرى إلى أين تأخذه خطواته!! وحيداً وظلام الليل يزيد الدنيا سواداً فى عينيه.. حتى يومنا هذا لايدرى حقًا إذا كان فوزى البنا غريمه أم لا.. بدأت التساؤلات تسيل فى رأسه عن هذا الرجل.. هل فعلاً سوف يقوم بتنفيذ وعده ويساعده ويحميه من الأوباش - ويقضى على الفساد؟ هل سيوفر له الأمان مع أحلام؟! وسوف يجعله لا يبالى بسالة. وظيفته تطلب منه ذلك، أم سوف يجعله مشغول البال بمراقبة خطواته؟ الجروح لم تلتئم بعد ليصدق الرجل الذى اختار الصدق وسيلة سهلة لعطف الآخرين.. لم يقطعه من خواطره سوى سماع صوت اندفاع من الخلف مصوباً نحوه مسدسه هاتفاً:

- اقف مكانك ياشريف.

تسمر مكانه ولم يتنفس بكلمة ومضى يفيق من هول المفاجأة. خرج الصوت قائلاً:

أرفع ايدك لفوق.

وعلى الفور أدرك الصوت.. صوت النذل كمال. لا يقوم بمثل هذه الحماقة سوى هذا الرجل.. يا ترى أرسله رئيسه بالعمل؟! أم يتصرف بحكم حماقته؟ لم يعط لهذه الأفكار فرصة. الثعبان ينفث سمه.. من ذا بالسموم حشاك.. كيف تعيش يا ثعبان وهذا السم يملأ فاك؟!

وبحركة سريعة شديدة الخفة يخرج سلاحه من جيب الجاكيت ويلتفت إليه.. لابد وأن يعرفوا أنه مازال محترفًا. بطن النحل تقطر شهدًا .. ولكنه مازال يستطيع أن يلدغ.

قال كمال محاولاً إثبات شجاعته وقدرته على الرغم من هول المفاجأة:

كمال: إن كنت فاكر إن المسدس ده هيعملك شجيع تبقى غلطان.

شريف: عايز تقول لي من غير مسدسك إنت أشجع.

كمال: أنا بأدى واجبى .

شريف: واجبك تتهجم على بيوت الناس وتقبض عليهم.

كمال: بتسمي دى ناس.. دول مجرمين.. شوية رعاع.

شريف: إنت جبان نزل سلاحك.

كمال: أنا مش خايف منك

شريف: مش خايف من الموت؟!

كمال: أموت وأنا بأدى واجبى شرف. وهو يهتز.

شريف: ده لو انت بتأدى واجبك صح.

يرى كمال القوة في عينه يرتعد قليلاً ولكنه يدارى ذلك بداخله – ويقول مختبراً:

كمال: نزل سلاحك ياشريف وسلم نفسك وأنا هساعدك.

يدرك شريف أنه أصبح ضعيفًا بهذه الكلمات – هذه كلماتهم الضعيفة – احتار في الأمر بين فوزى البنا وكمال. فوزى البنا الرجل الوحيد الذى لم يخضع لقانون شريف مهران لم يخش الموت ولم ير الضعف بعينه.. على الرغم من أن حركاته الدائمة تبدى للآخرين الضعف الشديد نظراً لكم الحرس الذى يتابعه.

شريف، فى حدة شديدة: مش قولتلك إنت جبان – خايف من الموت.

كمال: لا.. فى اعتراض شديد محاولاً استرداد قوته: إنت غلطان.

شريف: خلاص نلعب لعبة الموت.. تعرف أصول اللعبة؟!

كمال : لا .

شريف : أعلمك أصولها : هاعد لحد تلاتة . . وبعد تلاته اللى يضرب الأول هو اللى يكسب .

كمال ، وهو يهتز قليلاً : إنت مجنون .

شريف : مش قولتلك إنت جبان . . مش عايز تصدقنى .

كمال : أنا مش جبان - مش عايز دم - بلاش جنون وسلم نفسك .

بعد أن رأى الضعف في عينه تمالك زمام الموقف قائلاً بثقة شديدة .

شريف : على جثتى ياروح أمك - مش إنت بتقول للناس كده؟!

كمال : لآخر مرة بحذرك . . نزل سلاحك .

شريف : العب . . العب لعبة الموت - متخافش لومت هيدوا أهلك شوية تعويض وهتطلع في الجرايد - وتموت شهيد .

كمال : ماشى هالعب معك اللعبة .

شريف : أهو كده . . خلينى أغير رأيى فيك . . مستعد ؟ !

كمال ، في ارتجاج شديد : أيوه

شريف : واحد . . . . اتنين .

يفزع كمال طالباً الوقوف - وهو ينزل ساعده نحو الأرض . ينشرح صدر شريف الذى عادت قوته له مرة أخرى ، ويضحك ضحكة بها قليل من الهذيان وهو يضع سلاحه بجيب الجاكيت قائلاً : مش قولتلك إنك جبان بتدارى جبنك ورا بدلتك والسلاح اللى حكومتك ادتهولك .

كمال : اسكت - اسكت .

شريف : قدامك أربعة وعشرين ساعة وتفرج عنهم . . وابعد عن طريقى .

كمال : بينى وبينك يوم نهاره زى ليله .

شريف : وطول ما أنا عايش هخلى حياتكم ليل كله كوابيس .

يتركه ويرحل وهو يسير بثبات شديد - ويضحك ضحكات عالية -

وكمال أعصابه مرتبكة يصوب المسدس في ظهره ويغمض عينه ولكنه يفشل أن يضغط على الزناد ويصيح شريف بصوت عال : جبانات.. جبانات.. أنا شريف مهران والدنيا متساويش غير شريف مهران.

يكتم كمال أذنه حتى لايسمع ذلك - ولكن دوى صدى الصوت لم يرحمه.

(٤٤)

في الصباح التالى كان يجلس بمقهى « على بابا » بالطابق العلوى. بعد أن تناول الفطور واحتسى قهوته أشعل سيجارة وأخذ يبصر الناس المارة بميدان التحرير. لفت نظره رجل يقف بمنتصف الطريق يحمل بعض الجرائد، ويبدو شبه مهبول. يرتدى ملابس مهترئة ولحيته طويلة. وأصلع الرأس. يستوقف بعض المارة ويحاول أن يتحدث إليهم - ولكنهم يفرون منه.

بالأمس كان شخصاً متحرراً ليس لديه مايخشاه، والآن أصبح الخوف يكمن بالمستقبل.. مستقبله مع أحلام. هل الأوغاد سوف يتركونه يعيش حياة عادية؟؟ والدهشان ورجاله هل سوف ينسون الثأر بمجرد أن شريف تزوج وأصبح يعيش حياة عادية.. والشيخ زيدان الذى يسعى بكل جهده أن يضمه إليه مرة أخرى، وكمال الذى حطم كبرياءه وجعله سخرية لنفسه.. لاشك أنه بداخله أدرك أن الوغد كمال كشف قليلاً من حقيقة ضعفه عندما خشي أن يموت قبل أن يرى أحلام - ومن حسن حظه أن النذل لم يدرك ذلك وهذا لقلة خبرته باللعبة. أخذ يفكر كيف سوف ينجو من هؤلاء ؟! هو الذى يود أن يضع جسده ويرتاح قليلاً دون المخاطرة بحياته. سمع الرجل المهبول يصرخ بأعلى صوته للمارة:

فوقوا.. فوقوا.. خلّوا بالكم من اللعبة
الأغراب هييجوا ولشوية مجانين فلوس هيدوهم
وبالسلاح هيساعدوهم وهيقووهم

فر بعض المارة منه عندما اقترب منهم - ولكنهم ظلوا يستمعون إليه من بعيد وهم يسخرون ويضحكون ولايفهمون وهو يردد كلماته كالشاعر الذى تاه فى الصحراء ولايملك سوى شعره وشريف يتابع كلماته بإنصات شديد.

الشعب والجيش هيقوموا على المجانين اللى عايزين

الأغراب هيتدخلوا

وباسم الإنسانية هيقتلوا

اللى يموت من الشعب والجيش مش محسوب

واللى هيموت منهم الدعاية العالمية هتنصره......

فوقوا.. فوقوا

تتغير ملامح وجه شريف - وكأنه سمع صوته يدوى بين الناس وهم لايبالون.. فقط يضحكون.

الأغراب هيدخلوا فى الجيش والشعب هيضربوا

وباسم الانسانية هيقتلوا.

الأرض هيقسموها - وبالصليب الأحمر والأمم المتحدة هيوزعوا.

الدولة الكبيرة هتبقى دول صغيرة وتنتهى اللعبة - خلّوا بالكم من اللعبة

فوقوا - فوقوا - خلّوا بالكم من اللعبة الدور علينا.

اختفى الرجل من أمامه - تماماً مثلما حدث مع العرافة التى حذرته من الحب والأعداء.

ارتعد قلبه، وبسرعة هرع ليبحث عنه فى كل مكان. لم يجد له أثراً وكأنه جن ظهر واختفى فى لحظة.

هل أصابه هلوسة؟ ذهب ليتأكد من عدم جنونه. سأل أحد الباعة. كان الرجل مشغولاً مع زبون قال بلغة خوف شديدة: إنه لم ير ولم يسمع أحداً. شعر بقشعريرة فى جسده وخشى على نفسه من الجنون. بالماضى كان لا يخشى ذلك - حاول جاهداً أن يقاوم الفكرة ويطردها

من رأسه فأصيب بالاختناق الشديد من كثرة الزحام حوله. تنفس بصعوبة شديدة. تأكد من وجود مسدسه بلمسة خفيفة على جيب الجاكيت.. ود أن يرحل بعيداً عن هؤلاء البشر.. اللغة البذيئة القذرة المستعملة بين الناس بالضحك والجد تطغى على الأذن.. تلوث البيئة يحقن الأنف الذى لا يشم سوى رائحة السيارات والمأكولات ودخان الشيش كباب - والعين لاترى سوى زحام وارتباك حركة المرور. ماذا تبقى للإنسان إذا أصبح يستخدم جميع حواسه هكذا.. وهل هو الوحيد الذى استمع إلى هذا المجهول؟؟ أو الذى يعتقد أنه مهبول!! هل يرى ويسمع أشياء لا يراها الآخرون - أو هم تماثيل متحركة بلا حواس.

جن جنونه، وقرر أن يلعب لعبته الشهيرة.. لعبة الروليت الروسى.

الحياة قذرة ولايستحق لمثله أن يعيش بها. تذكر كلمات العرافة التى صدقت بكلماتها عن الحب.. لقد حذرته ولم يستمع.. تذكر أنها قالت عنه إنه أمير المدينة وقرر أن يموت أميراً.. اختار لنفسه "القلعة" - ما أجمل أن يموت الأمير بقلعة وعليهم أن يدركوا سره. الآن فقط يستطيع أن يرحل سعيداً عن هذه الحياة.. لقد استمع للرجل المهبول يردد أفكاره، والحياة لا تتسع لاثنين يحملون نفس الرسالة.

عندما وصل إلى القلعة اختار لنفسه مكاناً أميناً بعيداً عن الأنظار، وأخذ يفرغ رصاص مسدسه. ثم وضع رصاصة واحدة بالمنتصف وأخذ يلف صينيته.. فكر قليلاً. كان يود أن يرى أحلام قبل خوض هذه اللعبة. ارتعد من فكرة الموت.. هذه هى أول مرة يرتعد من المصير المجهول. حاول جاهداً أن يقاوم ولكنه لم يستطع، لم يجرؤ أن يضع المسدس على رأسه أو فى فمه. لم يجرؤ على الضغط على الزناد.. ملأ الخوف قلبه من عدم جرأته على القيام باللعبة.. رفع مسدسه فى الهواء وضغط على الزناد بقوة - فخرجت الرصاصة يدوى صوتها بالمكان كالرعد.

(٤٥)

دوى صوت الرصاصة عالياً بالحى .. أدخلت الرعب فى قلوب بعض الناس، وآخرون أصابهم القلق وأخذوا ينظرون حولهم، والبعض الآخر سمع الصوت وتظاهر بالطرش. تصادف لحظة خروج الطلقة الإفراج عن سالمة وأحلام. لقد أمر فوزى البنا بذلك وقام بتوبيخ كمال علي فعله، وكلف شخصاً آخر بمهمة شريف مهران. جعل الأمر أكثر تعقيداً لكمال. لم يدرك النذل بفعله أنه جعل روح شريف تنطلق إلى أرواح أخرى – وقفت سالمة أمام قسم البوليس والغضب الشديد مرتسم علي وجهها وبجوارها أحلام قررت أن تكون محتجه على قانون الغابة – لم ولن تسمح مرة أخرى بقانون السمع والطاعة يفرض عليها .. سوف تحارب بروح المقاتل بداخلها.

أخذت تسير بثبات شديد، رأسها مرفوعة، تعرف طريقها جيداً. شعرت بأن شريف مهران ليس بعقلها وقلبها فقط، بل روحه أيضاً انتقلت إليها .. كانت أحلام تسير خلفها ببطء شديد .. مترددة هل تواصل مسيرتها مع سالمة وشريف .. تعلم جيداً أنها رحلة عذاب مريرة وطويلة .. تدرك جيداً أن الجلادين لم ولن يتروكهم وشأنهم، ترى سالمة تسير بثبات شديد .. لا تنظر خلفها .. فقط .. تسير. لمحت سيارة فاخرة توقفت. أشار السائق لها. أخذت تنظر إلى سالمة. توجهت نحو السيارة مترددة. فتح لها الباب. أخذت تنظر إلى سالمة التى تسير بثقة غير عادية. أغلقت الباب بشدة – انتابها حالة غيرة نسائية غير عادية. هرعت خلف سالمة التى لم تدرك ماحدث. قررت أن تكون معها .. بل قد تكون أقوى منها عندما تتقابل مع شريف مهران ويعانقها. وإن لم تتقابل معه مرة أخرى فيكفى روحه التى تعيش بها الآن.

عندما وصلت إليها قبضت على يديها وهما يسيران. بادلتها سالمة الابتسامة.

(٤٦)

غزا كمال إحساس ثقيل بالفشل وخيبة الأمل واكتسى وجهه بالإخفاق وهو مستند على سور كورنيش قصر النيل.. لم يتابع كعادته الأرداف الجميلة أسفل الملابس للنساء، ولم يحاول اصطياد فريسة لليلته. كان عقله مشغولاً .. وقلبه ممتلئًا بالحقد والغضب من هذا الثورى الملعون المتمرد الذى قلب حياته رأسًا على عقب.. لقد عاقبه فوزى البنا على فعله وتم نقله إلى أقصى الصعيد.. وإجراءات التنفيذ سوف تتم فى خلال أسبوعين. كاد أن يجن جنونه - ماذا سوف يفعل بالصعيد هو الذى تعود على حياة المدينة وليس ذلك فقط.. بل هناك شخص ما نشر خبر قصة أبويه بين زملائه وأصبح سخرية لهم. كان لايدرى ماذا يفعل؟؟ لم يعد يتحمل هذه الصدمات المتتالية. لا يطيق فكرة العيش بالصعيد - هناك المشاغبون والمتمردون أكثر شراسة من شريف مهران وعلى أشد الاستعداد لزرع الفوضى فى طريقه. هل يمكن أن يسقط فى حضيض أشد عمقًا من ذلك؟؟ فكر بأمرين الأول أن يستقيل من منصبه!! ولكنه وجد نفسه تائهًا سائرًا فى سراب.

ماذا يفعل بعد؟! هو الذى لا يستطيع أن يحيا بدون سلطة.. والذى تعودِ أن يعطى أوامر، فكيف له أن يأخذها من أناس أقل ضعفًا.. يالها من مأساة حقيقية لرجل متكبر!

أما الأمر الثانى فهو الخلاص من الحياة.. القفز فى هذا النهر.. والخلاص من كل هذه الهموم التى أصبح لاحصر لها. لم يصدق نفسه: كيف لفوزى البنا الرجل الذى خدمه بكل هذه الطاعة العمياء أن يتعامل معه هكذا؟!! كيف لهم أن يفعلوا معه هكذا هوالذى خضع لكل سلطة وسار خلفهم مسلوب الإرادة.

الدنيا أصبحت أكثر سوادًا فى عينيه. أصبح لايطيق فكرة الذهاب إلى الصعيد ولا فكرة التخلى عن عمله. فكلاهما نهاية لحياته. وفكرة الانتحار أصبحت الحل الوحيد. الخلاص منها أمر أصبح لابد منه. فالوفاء لفوزى البنا أو غيره أصبح أمرًا غير مضمون حتى لو بقى فى منصبه.

أبصر الشارع حوله.. وجده خاليًا تمامًا. وقف تحت الشجرة واستدار كى يفحص الطريق مرة أخرى. هذا القرار لابد من سرعة تنفيذه - استغرق الأمر دقائق معدودة - والآن أصبح الطريق خاويًا. قفز بسرعة على السور، ثم قفز بكل قوة إلى الماء، لحظة سقوطه فكر مرة أخرى وعندما تلاحم جسده بالماء وغاص فى الأعماق قرر أن يقوم ويحيا. لقد نسى أمرًا مهمًا.. كيف يموت والوغد شريف مهران يحيا وهو سبب كل البلاوى. قرر أن يقوم ويحيا.. يحيا لينتقم منه ومن فوزى إذا حكم الأمر. وصل إلى الشاطئ مبللاً - ثم بسرعه وصل إلى سيارته وطار على الطريق إلى منزله.

ساعات طويلة مرت بمنزله وهو يفكر بالأمر.. تدرب على لعبه الموت.. وقف أمام المرآة مصوبًا مسدسه نحوها. لقد امتلك زمام الأمر. ظهر شبح شريف مهران بالمرآة مصوبًا مسدسه نحوه.. مازال يضحك ويسخر منه يطالبه بأن يلعب لعبة الموت. كمال يهذى، ولكنه يصمم على خوض المعركة. رأى الضعف بعينيه. قرر أن يخوض المعركة. سمع صوته يقول: واحد.... اثنين.....

وقبل أن ينطق بالرقم ثلاثة ضغط كمال على زناد مسدسه.. فتحولت المرآة إلى قطع صغيرة. سمع صوت شريف متألمًا وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة قائلاً: أنت لم تنتظر حتى أنطق بالرقم ثلاثة - هذا ليس قانون اللعبة. قال لنفسه فى تصميم شديد: الموت ليس له قانون.. الموت ليس له قانون ياشريف يامهران.

لم تكن سوى سحابة عابرة فوق المدينة، اختفت الشمس تماماً وهبت عاصفة لبضع دقائق - أمسكت سالمة خلالها بخيط أفكارها بثبات شديد.. عندما دخلت هي وأحلام إلى قسم البوليس لتدفع الكفالة لأحمد الشاعر.. شعرت بافتقاد شديد لحسن.. قررت أن لا تترك الأوباش يحطموا السعادة والجو الأسرى الذى شعرت به مؤخراً.. قررت بأن تمسك بما جمعه شريف مهران بكل قوة. لن تعود للوحدة مرة أخرى .. فالوحدة سبب كل البلاوى، فالوحدة جعلتهم يتصرفون لمصالحهم الشخصية.

شعرت بقوتها تعود إليها. لن تبحث عن شريف مهران.. سوف يأتي وقت الشدة. وإن لم يحدث ذلك فعليها أن تتصرف وتتظاهر بأنها شريف مهران.. تنقض عليهم كالصقر. سطعت الشمس من جديد عند خروج ثلاثتهم من القسم فى طريقهم لمبنى الأحداث لإنقاذ الطفل.. قرروا جميعاً أن لايتركوا أحداً ينتهك حقوقهم. سوف يناضلون ويحاربون من أجل فقط أن يحيوا.

عاد الدهشان من رحلة علاجه بالخارج، وأول شيء فعله عند عودته وبخ رجاله أشد التوبيخ ولعنهم على عدم الإمساك بشريف حتى الآن. طلب منهم أن يأتوا به حيًا أو ميتاً. ود أن يقتله بنفسه.

في المساء زاره الشيخ زيدان وهو يرقد بسريره، ليطمئن على سلامته.

- حمدا لله على سلامتك.

- سلامتي - هو شريف خلّى فيه سلام!

- أنا جى أقولك إن إحنا حللنا دم الكافر شريف مهران.

- إيدى على إيدك يامولانا - بس ده بسبع أرواح.

- لا.. شريف مهران خلص خلاص..

- المشكلة ياامولانا إن شريف لما بيختفي.. زى مايكون بيختفى جوانا.. ولما يظهر يظهر فجأة مرة واحدة - ولما بتشوفه ماتبقاش عارف تعمل إيه.. بتسلم أمرك لله.. شريف ده عامل زى الوهم.. الوهم بيخلق أوهام كثيرة.

- قصدك إيه؟؟

- قصدى إن المشكلة مش في شريف... المشكلة فى الأوهام اللى خلقها شريف.

- سيبك من الموضوع ده واعتبره إنه اتحل.. شوف الناس حواليك.. فيه حد حاسس بشريف غيرنا - الإجابة طبعاً لا.. يبقى لازم ننساه لأنه هيموت وأنا جيلك علشان كده.. أنا عايز مساعدة.

- مساعدة تاني ياشيخ زيدان.

- ثاني وثالث ورابع.. إحنا بنعمل كل ده ليه؟!

- ياخوفى ياشيخ زيدان لما توصل للى إنت عايزه.

- لا ما تخافش إحنا مش ممكن ننسى الناس اللي بتساعدنا.

- إنت كنت جى بقى علشان المساعدة - مش علشان تزورني.

- أستغفر الله - أستغفر الله. حمدالله على سلامتك.

(٤٨)

كان المذياع يذيع أغنية هايفة بالمقهى.. أغنية ليس لها مضمون أو معنى لمغنى صوته أجش ونشاز يبدو من المتطفلين على الغناء بماله أو شهرة أسرته حاله ككثير من المطربين اليوم أو الفنانيين فى كافة أنواع الفنون وكأن الفن أصبح بالوراثة. راح عزيز يهش الذباب من على وجهه بملل شديد وهو يجلس بمفرده على منضدته.. دخل شريف إلى المقهى بخطوات بطيئة مرهقة.. والحزن واليأس على عينيه.. تبادلا

النظرات ولم يتبادلا التحية.. جلس على الكرسى بجواره ولم ينبس بكلمة ولكنه أخرج مفاتيح السيارة ووضعها على المنضدة.. طلب من القهوجى أن يحضر له مشروباً.. عزيز كان يتأمله بقلق شديد.. ثم قال فى حدة:

عزيز: بقيت تأخذ قرارات من غير ماتستشرنى.

شريف: قصدك جوازى من أحلام - ولا مقابلة فوزى البنا؟

عزيز: إحنا أصحاب قضية.. رهبان مفيش غريزة بتتحكم فينا.

شريف: دى مسألة شخصية.

عزيز: هى دى الكارثة - مفيش عواطف فى السياسة.

شريف: بتلمنى - قصدك تقول إنى أنا السبب.

عزيز: لا أنا قصدى إنك نسيت القضية.

شريف: القضية - فى سخرية - وإنت كنت فين لما قبضوا على سالمة وأحلام؟!

عزيز: إنت عارف.. أنا ماقدرش أتدخل علشان ماكشفش نفسى لهم.

شريف: وده مش جزء من القضية - مش إحنا بنعمل كل ده علشان كده!

عزيز: إنت عايز تتجوز وتخلف عيال يطلعوا مالهمش مستقبل!

شريف: ماتغيرش الموضوع.. إنت زيهم - عايز حد غيرك يعمل اللى إنت مش قادر عليه وبعد كده تبقى زيهم - أنا من حقى أعيش.. زهقت من اللعبة.

عزيز: بتسمى القضية لعبة!

شريف: أنا تعبت منكم ياعزيز - تعبت ياعزيز.

عزيز: أول مرة تقول لى ياعزيز - ناوى تعمل معى زى ماعملت مع زاهر وزيدان.

شريف : أنا نويت أعيش حياة عادية .

عزيز : حياة عادية ! ! شريف مهران يعيش حياة عادية ؟ !

شريف ، وهو ينظر إليه في حدة : ماقلتليش إن أمي ماتت .

عزيز ، يتغير وجهه ويبدو الحزن عليه : ماكنش فيه وقت - كنت عايزك تلحق مراد . . البقية في حياتك .

ينهض شريف من على كرسيه مودعًا إياه - دون أن يتبادل معه النظرات . ينهض عزيز خلفه متسائلاً : رايح فين ياشريف .

شريف : رايح أزور أمي .

عزيز : أنا جي معاك .

يلتقط مفاتيح العربة من على المنضدة ثم يسير بجواره - والقهوجي من على بعد متر ينادى عليه بصوت عال : دكتور عزيز - مدام مفيدة على التليفون .

ينظر عزيز إلى شريف . . ويعطيه المفاتيح . قائلاً :

عزيز : استناني في العربية .

يأخذ شريف المفاتيح ويسير ببطء خارج المقهى .

(٤٩)

سار الجميع بمنتصف الطريق مترابطي الأيدى كالعصبة الواحدة التي لايغلبها غالب . يسيرون بخطوات واثقة غير مبالين بالزحام أو آلات التنبيه من السيارات . فقط يسيرون - أحمد الشاعر ينظر إلى أحلام وكأنه الفائز - و سالمة تبتسم لحسن وكأنها وجدت المستقبل .

لا أحد يستطيع أن يعرقل خطواتهم الآن . . شريف داخل كل منهم . سوف يخرج وقت الشدة وينقض كالصقر على أعدائه . خطواتهم تدب بالأرض كالجندى الذى يناضل لتحرير أرضه من المغتصب . رجال الشيخ زيدان على الرصيف يتابعون خطاهم ورجال الدهشان على الرصيف

الآخر يتبادلون معهم النظرات الحادة الغاضبة ، ولكنهم يسيرون بطريقهم غير مبالين ولكنهم حذرون مستعدون . . .

خلف الجميع عربة البوكس يقودها كمال . . يراقب الجميع . الجميع ينتظر أن يرى شريف مهران - ولكنهم لايعرفون أن شريف مهران ربما أصبح بداخلهم - قد يخرج بأى وقت ، وعندما يخرج سوف تنقلب الحالة رأسًا على عقب ، وقد يتحول المكان إلى دمار . . الجميع ينتظر الحركة الأولى من الآخر هل سوف تحدث ؟؟ وإذا حدثت ما مصير الطفل حسن ؟! هل سوف يكون شاهداً على الأحداث ؟!! أم سوف يكون شهيداً ؟!! أم سوف يكون الفائز بمعركتهم ؟!!

(٥٠)

بعض الناس كالحشرات يمضون حياتهم منزوين بين العمل والمنزل . . خائفين من الشياطين الآدمية خلال ساعات النهار ، ساعات الليل فى الظلام الدامس . يخشون الأرواح المنطلقة في كل مكان باحثة عن نفس حية لتصلي من أجلهم ، ولا أحد منا يستطيع أن يرفع رأسه الى السماء دون أن يشعر بالعار . كانت هناك روح لطفل كبير هي الوحيدة التى تطوف في كل مكان ليلاً ونهاراً . لقد كان للطفل مطالب قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في مقبرته . . ود أن يعرف السبب الحقيقى الذى من أجله دفع حياته مبكراً ثمنًا لجنون هذا العالم . . ولذا طافت روحه ليلاً ونهاراً .

لم تجد الروح سببًا واضحًا - كافيًا يدعو لقتله . هو الذى سعى جاهداً أن يسجل هدفًا كرويًا جميلاً يسعد به أهل الحى . سعد كثيراً لأنه ترك العالم وهو طفل صغير . تألم أكثر أن يكون شاهداً على سخافتهم أحياء بلا روح . لقد حذرته العرافة بالوقوع بالحب . هذا ليس زمن الحب . .

أخذت روح الطفل الكبير تجهز نفسه عن التوقف بالطواف نهاراً .. وفي طريقه لمقبرته وجد زهور الروزس البيضاء موضوعة عليها. تساءل مع نفسه عن الشخص الذى وضعها ؟؟!! أخذ يشم رائحتها الفائحة ثم وضع سلاحه بجوار الزهور. لقد خففت الزهور من آلامه.. وزاد السلاح منها. لقد أصبح هذا أمراً مفروضاً عليه أن يتخلى عن جميع ما يملك من أمور الدنيا، ويذهب عارياً تماماً إلى المقبرة. خلع ملابسه ووقف يتأمل المقبرة للحظات أخيرة. تذكر أن أمه دخلت المقبرة منذ لحظات قليلة جداً وربما شخص ما وضع لها الزهور.. انتابه شعور غريب.. وكئيب.. شعور لايوصف أن يكون طفلاً حيًّا بين الموتى .. وأن يكون شخصاً كبيراً غير مدرك من الأحياء.

لقد صرخ الطفل ليحيا الموتى .. ولكن الجثث الهامدة لم تسمع صرخاته.

وصرخ في وجه الأحياء ليدركوا وجوده... ولكنهم كانوا فاقدين الحواس.

أخيراً وجد الأمان بجوار جثة أمه.. فهي شهادة ميلاده.. والآن أصبحت سلوته في قبره..

ملبورن فبراير ١٩٩٩م

من قائمة الإصدارات الأدبية

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد	المتعبون	جمعة محمد جمعة
حمدان ملليقا	أحمد عمر شاهين	دموع إيزيس	حسنى لبيب
الهاجس	أحمد بدران	بالمقلوب	د. حمدى حمودة
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ	أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
سريب	أحمد الفيتورى	الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
ظل باب	أحمد محمد حميدة	أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
وقائع غرق السفينة	إدريس علي	يومية هروب	خيرى عبد الجواد
واحد ضد الجميع	إدريس علي	مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
المبعدون	إدريس علي	العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
طريق النسر	إدوار الخراط	حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
صخور السماء	إدوار الخراط	حرب بلاد تمتم	خيري عبد الجواد
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط	حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط	الحدود	رأفت سليم
يقين العطش	إدوار الخراط	الطريق والعاصفة	رأفت سليم
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط	في لهيب الشمس	رأفت سليم
متى تتزوجني !!	أشرف خليل	اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
الهيش	أشرف العوضى	لاكشدة (قصص قصيرة مترجمة عن الإسبانية)	ت : رزق أحمد رزق
حذاء السيد المنسى	أشرف العوضى	لنا ونورا وماعت	رفقي بدوي
عندما تبيض الديوك	أمجد صابر	سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
لا أحد يحبك	أمانى فيمى	شجرة الخلد	سعد القرش
همس العاشقين	أمين بكير	تائهون فى الحياة	سعدية البياتى
حكايات من دفاتر النسوان	أمين بكير	شهقة	سعيد بكر
ألم يخلقها الله امرأة	أمين العزب	حبيبى يا ناس	سليمان كايو
مأساة أسرة	أمين العزب	أرجوحة	سمير الفيل
أشياء خاصة جداً	أمينة العمادى	ظل الحجرة	سمير الفيل
الخيول الشاردة	بهى الدين عوض	قطار الساعة ١٢	السيد الشوربجى
قبل وبعد	توفيق عبد الرحمن	أيام هند	سيد الوكيل
دنا فتدلي (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني	كف مريم	سعيد سالم
مطربة الغروب	جمال الغيطاني	سفر الموت	شاطبي يوسف ميخاليل
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د . جمال التلاوي	الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
الرقص على حافة الجرح	جمال فايز	أيام القرية الأخيرة	صالح سعد

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية


PRINCE OF THE CITY
سمع الرجل المهبول
يصرخ بأعلى صوته للمارة:
فوقوا.. فوقوا..
خلّوا بالكم من اللعبة
الأغراب هيجوا ولشوية
مجانين فلوس هيدوهم
وبالسلاح هيساعدوهم
وهيقووهم
الشعب والجيش هيقوموا
على المجانين اللى عايزين..
الأغراب هيتدخلوا
وباسم الإنسانية هيقتلوا
اللى يموت من الشعب
والجيش مش محسوب
واللى هيموت منهم الدعاية
العالمية هتنصره..
فوقوا.. فوقوا..
الأغراب هيدخلوا فى الجيش
والشعب هيضربوا
وباسم الإنسانية هيقتلوا
الأرض هيقسموها -
وبالصليب الأحمر والأمم
المتحدة هيوزعوا
الدولة الكبيرة هتبقى
دول صغيرة وتنتهى اللعبة
خلّوا بالكم من اللعبة
فوقوا.. فوقوا..
خلّوا بالكم من اللعبة
الدور علينا.
مركز الحضارة العربية
Novel by: Maher Abou ElSaoud